

روايات د. نجيب الكيلاني

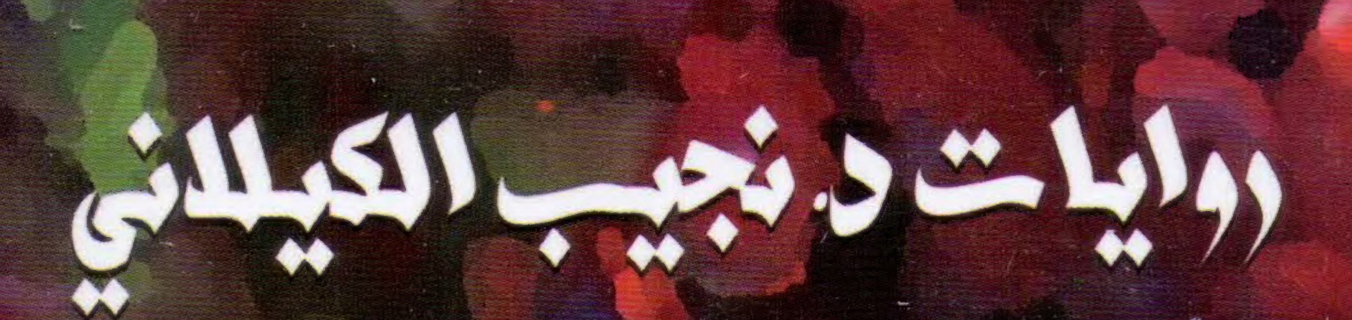
من روائع الأدب الإسلامي

ملكة العنب

Grape Queen



Dr. Naguib Al Keilany



من إصداراتنا





حكاية جاد الله

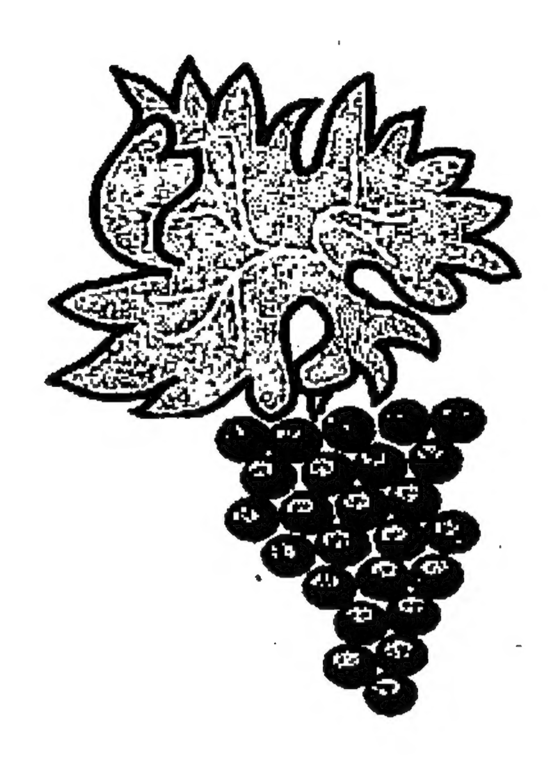


حارة اليهود

Design by Abdul Rahman Magdy

الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفاكس: 20242106060+
Email:daralsahoh@gmail.com





نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

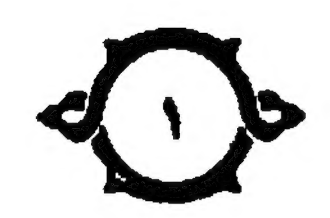
رقم الإيداع: ٢٠١٢/٩٨٠٢

الترقيم الدولى

977-255-348-1



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٣٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



مشى متباطئًا، ممسكًا عصاه بيمناه، والبسمة تعلو وجهه الأسمر الوسيم، وجلبابه الأبيض الناصع يشع طهرًا ونقاءً، وكذلك طاقيته المحبوكة على رأسه. كان متجهًا صوب المسجد، لا يرفع عينيه عن الأرض إلا بقدر ما تقتضى الضرورة، يلقى السلام على كل من يصادفه فى الطريق، ومن ينظر إلى وجهه يستشعر الاطمئنان والسكينة. أهل القرية يطلقون عليه اسم «الرجل الصالح» لكن اسمه فى البطاقة الشخصية محمد أحمد حسب الله، يُعرف عنه الحلم، لكنه إذا غضب تحول إلى عاصفة، فقد كان عدوًا لدودًا للكذب والنفاق والظلم والتّعالم، يتعامل بحذر وأدب مع كبراء القرية وأثريائها، ومع عامة الناس بالرقة والمودة.

أثناء إلقائه لخطبة الجمعة الثانية أثار قضية مهمة، استمع إليها الناس، وهُم ما بين مصدّق ومكذّب، ومؤيّد ومعارض. حتى أولئك الذين نالوا قسطًا وافرًا أو محدودًا من التعليم

انحاز بعضهم إلى هذا الفريق أو ذاك، وكان من ضمن ما قال:

«لقد تحوّلت حقول قريتنا إلى مزارع للعنب، وأهملوا زراعة الحبوب، وهم لا يخرجون زكاة هذه الفاكهة مرتفعة الثمن، والفدان فى المتوسط ينتج من العنب ما يساوى خمسة آلاف أوستة آلاف جنيه. والزكاة هنا نصف العشر لأنها تُسقى بالآلة أى حوالى خمسمائة إلى ستمائة جنيه.. ولو فعل زرّاع العنب ذلك، لقل عدد الفقراء فى قريتنا إلى حد كبير.. فاتّقوا الله ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].. ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ [الحديد: ٧] أليس هذا القول من القرآن الكريم؟؟».

وما إن انتهت الصلاة، حتى ساد اللغط والجدل. فمن قائل إن العنب لم يُذكَر ضمن أصناف المحاصيل التى تخرج عنها الزكاة إلا إذا كان زبيبًا، وآخر يؤكد أن الأئمة الأربعة ذكروا العنب ضمن تلك المحاصيل، وأضاف عدد من ذوى الاطلاع أن بعض المجتهدين المُعاصرين أفتى بإخراج الزكاة عن العنب، ولقد حدث الكثير والكثير فى هذا اليوم، لكن اللافت للنظر أن أحد مشاهير الفقراء المشاغبين وهو «عوض العوضى» أعلن قائلاً:

-إذا لم نأخذ حقنا بالشرع، فسوف نأخذه بالقوة..

●●●

الشيخ محمد حسب الله لم يتزوج بعد على الرغم من أنه قد بلغ الثلاثين من العمر، ذلك لأن أباه قد لقى ربه وهو فى السنوات الأخيرة من مراحل التعليم، وكان أبوه يصبغ ملابس الفلاحين باللون الأزرق، ويتقاضى مبلغًا بسيطًا من المال نظير ذلك، ولم يجد ولده بدًا من أن يواصل مهنة أبيه حتى يجمع كل عام ما يكفيه لمواصلة التعليم، وكانت آثار الصبغة الزرقاء تعلق بيديه. وظلت هكذا لسنوات، إلى أن تخرج فى كليّة اللغة العربية، ثم معهد التربية العالى، وما إن أصبح مدرسًا حتى ترك المهنة، وقد كان فى حاجة إلى الوقت كى يدبر أمره قبل أن يقدم على اختيار شريكة حياته، وهناك أمر آخر لا بد وأن يأخذه الشيخ محمد فى الحسبان، ذلك أن أمه «مسعدة» تثير العديد من المشكلات اليومية بسبب أو بدون سبب، على الرغم من أنها طيبة القلب، تتعاون مع جاراتها، وتحرص أشد الحرص على أن تقدم لهم -من وقت لآخر- كمية من اللبن التى تحلبها من جاموستها الوحيدة، وهى ليست مجرد جاموسة فهى أشبه بالصديقة الوفيّة لمسعدة، وأصبح من المألوف أن يسمع الناس مسعدة وهى تتحدث مع جاموستها، وتعاتبها، وتقسو عليها، حتى لكأنها إنسان يعى ويفهم كل شىء، وكان ولدها الشيخ محمد يبتسم وهو يراقب ذلك.

●●●

زيارة لم تخطر للشيخ محمد على بال، سمع أمه فى سعادة:

-يا أهلاً وسهلاً. . نوّرت بيتنا.

ثم صاحت مسعدة بأعلى صوتها:

- يا محمد. . الست «براعم». . آسفة يا أختى. . الحاجّة براعم. .

خالجه شعور بالدهشة، فهو لا علاقة له على الإطلاق ببراعم، ولا يتذكر أنه حادثها مرة من المرّات، ربما كان يراها تمرّ فى الشارع كالطيف، ولم يكن هناك ما يجمع بينهما على أى وجه من الوجوه.

لف يده فى جزء من جلبابه، وصافحها حينما مدت يدها، لكنه شعر بقشعريرة، فهو لا يصافح النساء. جلست قبالته على مقعد خشبى متواضع، كانت تلف رأسها وعنقها بشال أسود رقيق، اختلس نظرة، ثم خفض عينيه ليستعيد صورتها الفاتنة، الوجه النضر المشرق بالحيويّة والشباب والسمرة الخفيفة، والعينين المكحولتين الواسعتين، والرموش الطويلة، والنظرات التى توحى بالقوة والثقة بالنفس، والرغبة فى المجابهة. . وذلك الفم الدقيق. .

تنهدت ثم قالت:

- تقول عنا إننا كفرة .

- أنا؟ أستغفر الله . . أنا لم أقل شيئًا من هذا يا بنت الناس .

- منذ يومين كنت تخطب الجمعة . .

- صحيح . .

- ولم تجد فى القرية عُصاة إلا أصحاب مزارع العنب .

- لم أقل ذلك . .

- تعرف طبعًا من أكون.

ابتسم وقال :

- يسمّونك ملكة العنب .

- وأنا كذلك فعلاً . . الجميع هنا يعرفون قدرى . . لقد بدأت العصابات تسطو على الحقول بسببك . . يظنون أن لهم حقوقًا عندنا .

كان يمكنك أن تتفاهم معى قبل الخطبة فقد أستطيع أن أتدبر الأمر . .

زم شفتيه ، وبدا الضيق على وجهه ، وظل مخفضًا بصره ، وقال بصرامة ، وهو يغالب غضبه :

- إن عالم الدين لا يأخذ إذنًا من أحد حينما يريد أن يقول

الحق. . وفي حـديث «أبي ذر» : أوصـاني خليلى بأن أقـول الحق وإن كان مرًا . .

- لكنك يا شيخ محمد تفتح بابًا للفتنة .

- حـاش لله . . . أردت أن أدعـو الناس لإخـراج زكـاة العنب .

أتت «مسعدة» بكوب من الشاى .

حدّثته نفسه أن يعيد النظر إلى وجهها الغاضب، ليرى كيف يكون، لكنه استطاع أن يكبح هواه. وظل متمالكًا لأعصابه وتحدث فى نبرات هادئة لا تحمل أية إشارة للتحدى :

- إننى أقول كلمتى وأمضى . . وللناس أن يطيعوا أو يعصوا . .

- نحن لا نخالف قوانين الحكومة يا شيخ محمد .

- دعى الحكومة جانبًا، فأنا أفسّر مبادئ الدين . . .

وذهل إذ سمعها تقول :

- وأنا سأمنعك من صعود المنبر مرة أخرى .

هتف وهو يصعد نظراته هذه المرة بغضب :

- أنت؟ .

- نعم أنا . . فأنتَ مدرّس، ولست خطيب المسجد . .

- المنبر ليس بوقًا من أبواق الحكومة، ولكنه مكان طاهر تنطلق منه كلمات الله يا صاحبة الجلالة . .

انتزعت نفسها خارجة دون أن تشرب الشاى، وشعر بحرج ممزوج بالضيق؛ إن أهل البلد جميعًا يجلّونه، ويعاملونه بمنتهى الاحترام واللياقة، فقد عُرِفَ بفضله وعفته، ولم يرتكب عملاً مشينًا يحنق عليه أحدًا، كانت معاركه كلها كلامية . . . معارك فكر ورأى، وهى مهما حميت لن تنال من كرامته وكبريائه وحب الخلق له . .

- ماذا جرى لعقلك أيها المجنون؟؟ أتغضب «ست البلد»؟

أمه هى الوحيدة التى تستطيع أن تنهره، وتعنّف له فى القول، بل وتلكزه أحيانًا، وتناديه بكلمة «يا ولد» على الرغم من أنه عالم جليل مهَاب .

-ليس فى البلد كلها من يجرؤ على مخالفتها، عمدة البلد يطأطئ لها رأسه . . المجلس المحلى لا يخالف لها أمرًا . . وضابط نقطة الشرطة ينحنى أمامها احترامًا . . ثم إنها صاحبة أفضال على الجميع . . لقد بنت المسجد . . ورممت المدرسة وصانتها من الانهيار . . وفتحت أبواب الرزق أمام الكثيرين . . ثم تأتى أنت وتشتمها على المنبر .

لم ينم الشيخ محمد ليلته . . صورتها وهى داخلة عليه، ثم وهى خارجة من بيته، كلماتها . . تهديدها . . منطقها . . لكنه يشعر بألم عميق بسبب تهديدها، إنها لم تتلقَّ من التعليم إلا الإعدادية، وهى تصغره بأربعة أعوام على الأقل، فكيف تجرؤ على فعل ما فعلت؟؟ إنه لا ينكر أنها شجاعة وذكية، ومغامرة، حين مات أبوها خرجت إلى الحقل تزرع وتحصد، كانت أمها معتلّة الصحة، وكان لها أختان صغيرتان، وكانت أول من أدخل زراعة العنب فى القرية على نطاق واسع، فقد نقلت ذلك عن أخوالها فى قرية مجاورة اسمها «شنراق» التى أصبحت لديها خبرة كبيرة فى ذلك، بعد أن تحول كل سكانها إلى ذلك . . بدأت بزراعة أفدنتها الأربعة التى تركها أبوها، وبعد أن نجحت أخذت فى استئجار المزيد من الأفدنة بأثمان مغرية، حتى أصبح اليوم ما تزرعه يزيد على ثلاثين فدانًا . . وكان من الطبيعى أن تتزعم ما يمكن أن يسمى «نقابة زرّاع العنب»، فهى التى تختار المبيدات الحشرية والأسمدة المناسبة، وهى التى تحدد مواعيد الحصاد، وتتفاهم مع كبار التجّار للحصول على أعلى سعر، ومن هنا أطلقوا عليها «ملكة العنب»، كل رجال القرية وأطفالها ونسائها يعرفون «براعم» ويحبونها، ولم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها، الكثيرون حاولوا خطبتها وقدّموا العديد من الإغراءات، لكنها

كانت ترفض الزواج بدون إبداء أسباب . . ظل الشيخ محمد يقظًا حتى الفجر، ثم حمل عصاه، وذهب للصلاة . . كان يفكر أن يعود إلى القاهرة قبل انتهاء الإجازة الصيفية، ذلك لأن لديه إحساسًا غامضًا باقتراب مشكلات . . . مجرد إحساس عندما رجع إلى البيت بعد الصلاة سمع أمه تقول للجاموسة :

-يا عاهرة . . يا قليلة الحياء . . اثبتى حتى أحلب اللبن . . عذبتنى عذّبك الله فى نار جهنم . .

ابتسم وقال :

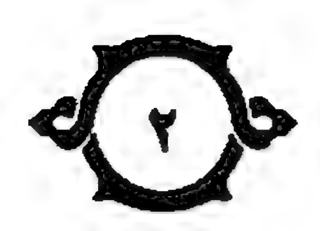
-صبرك عليها يا أم محمد .

وضحك من قلبه حينما سمع أمه تصيح :

-أنت وهى علىّ؟؟ كلكم صنف واحد . . أعوذ بالله منك ومنها . .

تناول طعام الإفطار بشهية، القشدة . . الجبن الأبيض . . الفلفل الأخضر . . الطماطم والخبز البلدى . . ثم كوبًا من الشاى المضبوط . .

وبعد أن انتهى من طعامه، قصد إلى أرفف الكتب، وتناول كتابًا من فقه أبى حنيفة النعمان، ولم يكد يقرأ بضع صفحات، حتى وجد شيخ الخفراء قادمًا إليه، يطلب منه المثول بين يدى حضرة العمدة . .



كان من الممتع فعلاً، أن تنشغل القرية بمسألة فقهية كزكاة العنب، ويشترك فى الحوار كل من هبّ ودبّ، إذ لم يقتصر الأمر على أهل الاختصاص من الفقهاء وطلبة الأزهر، وأصبح من المألوف أن تجد جمهرة من الناس حول قارئ لكتاب من الكتب الصفراء القديمة، أو كتاب مجلد أبيض أنيق. القارئ يقرأ بصوت عال، والناس يستمعون. وحدثت مشادات حامية أحيانًا بسبب بعض النقاط الخلافية، وتُدُولَت أسماء مشاهير مثل اسم الشيخ شلتوت، وأبو زهرة والخضرى وخلاف وكذلك الإمام محمد عبده، وغيرهم، وسمع الناس عن آراء حول زكاة النفط والركاز (معادن الأرض) والقطن والحلى والأرز وقصب السكر، وكلما ازداد الحوار حدة، ازدادت الهوّة بين الناس اتساعًا، وفى بعض الحالات حدث تراشق بالكلمات، وتشابك بالأيدى، وكل فريق يعتقد أنه على صواب، وأنه يدافع عن الشرع.

يعلّق «أبو المجد شاهين» وهو من الزاهدين الورعين قائلاً :

- ليست لدىّ الصلاحية ولا المؤهلات التى تجعلنى حكمًا فى مثل هذا الأمر ، لكننى أقول إن الإسلام إنما جاء ليجمع الناس على كلمة سواء لا ليفرّقهم ، وليتحابوا لا ليتباغضوا . . أقول لكم لا يدخل الجنة من نام شبعان وجاره جائع . . وأقول أيضًا : الزكاة أو الصدقة ، تطهّر المال وتنميه ، وتقرّب القلوب ، وتطفئ الأحقاد . . فلتستعينوا على هذه الفتنة بذكر الله وتسبيحه ، والصلاة على نبيه الكريم الذى مات ولم يترك درهمًا ، ولا شاة ولا بعيراً . .

أما «الراعى كشكل» وهو من الحشاشين المخضرمين فيقول :

-على قد لحافك مد رجليك . على كل إنسان فى بلدة «الربايعة» أن يأكل من عرق جبينه . . وأظن أن كثرة الصدقات تعلم الناس الكسل ، والتبطل ، ومن لديه ذرة من كرامة فليشق فى طلب الرزق ولا يمد يديه طالبًا الإحسان . .

فيرد عليه أبو المجد شاهين :

- كلمة حق أريد بها باطل . . ذلك أن هناك الكثيرين من العاطلين واليتامى والعجزة والأرامل ، ولا مورد لهم . . أما أنت . . فتزرع العنب ، وتتقاضى سمسرة ، وتنفق نصف دخلك على الحشيش . .

ويثور الراعى قائلاً فى حدة وقد احمرت عيناه :

- مـزاج يا أخى . . أنا حـرّ . . لـن يحـاسـبك الله على أعمالى . . ربما تعرف الكثير عن ذكر الله ، ولكنك لا تعرف إلا القليل عن أحوال الدنيا .

أحمد علام رئيس المجلس المحلى عقد اجتماعًا للأعضاء ، وقال فيه :

- إن مـا يهـمنا أولاً هو أمن البلد ، وتلاحـم الحـزب مع الجمـاهيـر ، وأخوف مـا أخافـه أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيّين . وقضية الزكاة حضرات الأعضاء مسألة شخصية بحتة ، وعلى كل فلاح أن يختار الفتوى التى تروق له ، ويا ويل من يعبث بأمن البلد .

لكن حضرة العمدة الذى تخطى السبعين ، قد استقبل الشيخ محمد حسب الله بالترحاب والتقدير والبسمة تعلو وجهه الأشيب الطيب . وقال :

- أهلاً بالرجل الصالح الجليل . .

شعر الشيخ محمد بالارتياح وتمتم :

- لم تسنحْ الفرصة لزيارتك هذا العام .

- أعرف مسئولياتك ، وأنا كثير التوعك هذه الأيام .

- وإنك والد.

- ولهذا استدعيتك..

لم يعقب الشيخ محمد بكلمة. فكلاهما يعرف موضوع اللقاء لكن العمدة تنهّد وقال:

- هذه القرية الظالم أهلها.. حكمتها أربعين عامًا.. عاصرت أحداثها وجرائمها، وأفراحها وأحزانها.. حاولت قدر جهدى أن أعدل بينهم.. لكن للأسف إرضاء جميع الناس غاية لا تدرك.. هل فهمت يا شيخ محمد؟؟

- بالطبع يا والدنا.

- لقد قدّموا شكوى فى حقك، واعتبروك المحرّض على السرقات التى جرَت فى الأيام الأخيرة.. واللصوص يا بنى- وما أكثرهم- يعتقدون أنهم يؤدبون الظلمة والبخلاء بسرقتهم.. إنهم يحاولون -حسب زعمهم- تطبيق الشريعة بطريقة فجة.. منع الزكاة عنهم يُعالج بالسرقة..

قال الشيخ محمد حسب الله:

- لكنى أبرأ من ذلك وأدينه.

- هذا ما أريدك أن تفعله فى الجمعة القادمة.

- لقد كنت أفكر فى السفر.

- إذا سافرت على هذا النحو فستترك الفرصة للقيل والقال .

واقترب الشيخ محمد من العمدة أكثر ، لأنه ثقيل السمع وقال :

- إن ما قلته لا يخرج عن فتوى فضيلة المفتى ، وعدد كبير من العلماء .

- أعرف يا بنى ، لكن الناس فى هذا الزمان قد جنُّوا بحب المال ، وهم على استعداد لأن يلوثوا الشرفاء ، ويسفكوا الدماء للحفاظ على مكتسباتهم . . العالم كله هكذا . . لعنة الله على الربايعة وأهل الربايعة . . أتدرى يا بنى ما الذى أفسد هذه القرية التى كانت آمنة؟؟

- ماذا؟؟

- عدّ على أصابعك :

التلفزيون . . السفر للعمل بالخارج . . فساد الإدارة . . البضائع المستوردة . . انهيار التعليم . . البعد عن شرع الله . . الرشوة . . تلك هى الأوبئة السبعة . .

وصمت العمدة برهة ، ثم قال :

- وأنا من جانبى قد قبضت على الملعون عوض العوضى

وسأضربه بالكرباج حتى يكشف عن لصوص العنب وإلا ضاع الأمن فى الربايعة .

كان الشيخ محمد يعرف أن حضرة العمدة «عبد الشافى وهدان» من أسرة طيبة . يسر الله له الحج سبع مرات ، ولديه من الأراضى الزراعيّة والأموال والمواشى ما يكفيه ، وأولاده يتولون فى الدولة مناصب مرموقة ، وأخوه الكبير رحمه الله كان من ضباط الثورة ، وهكذا عاش آمنًا محترمًا من الجميع ، ولا يتردد فى اتخاذ الإجرات المناسبة -مهما كانت قاسية- عند اللزوم ، ولا بأس أن يقسو أحيانًا حتى لا يفلت الزمام ، لكنه يتحرى الحقيقة تحت أى ظرف من الظروف . . ولم لا؟ لقد قضى بضع سنوات فى الأزهر وإن لم يكمل إلا الابتدائية . .

والواقع أن السرقة ليست جديدة على القرية ، فهى تحدث على مدار العام فى كل المحاصيل الزراعية ، وفى الأموال والبهائم والمجوهرات والتلفزيونات ، لكن ارتباط السرقة فى الفترة الأخيرة بالعنب ، وبخطبة الشيخ محمد ، وكذلك تكرارها بمعدل أكبر هو الذى أثار الضجة المضاعفة التى صاحبتها . .

لقد كان فى «براعم» عيب أساسى هو رأسها الصلب ، فإذا رأت رأيًا أصرت عليه ، ودافعت عنه فى استماتة ، وتأبى

التنازل مهما كان الثمن، وذلك لا يتفق وطبيعتها التجارية، حيث إن التجارة تحتاج إلى الكثير من المرونة والكياسة، لكنها والحقّ يقال لا تتخذ قراراً إلا بعد فحصه وتقليبه على كافة الوجوه، والتشاور مع من تثق فيهم بشأنه، وترى فى ذلك قمة الديمقراطية.

وبالنسبة للسرقات التى حدثت أخيراً فى حقول العنب رأت أنها لا تشكل خطراً جسيمًا على مملكتها فحسب، بل إنها تفتح الطريق لتسلط الأوباش والفقراء واللصوص، وسوف يعقبها بالتأكيد قيام قوة خفية تفرض الإتاوات، وتحقق الامتيازت الحرام، فإذا ما نمت هذه القوة أمكنها أن تهدد الأرواح نفسها.

وكان منطق «براعم» مقنعًا ومقبولاً لدى شركائها، خصوصًا أن السرقات تمت برغم وجود الحراسات، وتبيّن عندئذ أن الحراسة غير كافية لاتساع الرقعة الزراعية بصورة كبيرة، فقد سرقت مزارع وأهلها نائمون فيها يحرسونها بالسلاح، وزيادة الحراسة تعنى المزيد من القلق والنفقات، ولن تؤدى فى الغالب إلى الهدف المنشود.

قالت لها أمها العليلة:

– متى تفكرين فى مستقبلك يا براعم؟

– إننى أعيش له وبه.. هو حياتى وأحلامى.

- لا أقصد العنب . . بل أقصدك أنت .

فهمت ما ترمى إليه أمها ، فضحكت وقالت :

- سأتزوج عندما يأتى الأمر من صاحب الأمر .

- تقدمت بك السن ، ورفضت كل الأيدى التى امتدت إليك وفيهم الموظف والتاجر ، وفيهم ضابط نقطة الشرطة .

تنهدت قائلة :

- المرأة تريد الأقوى والأعظم .

- بل يجب أن تريد الستر يا حبيبتى .

- الستر وحده لا يكفينى . . أريد ما هو أكبر .

- أستغفر الله .

- أنا لست مغرورة ، لكنى أعتقد أن الستر مجرّد الستر يحتاجه الضعفاء والمساكين ، وأنا لست منهم . .

- وضابط الشرطة؟؟

عادت براعم للضحك . وافتر ثغرها الجميل عن أسنان ناصعة البياض ، وفم شهى ، وقالت :

- إنه يأخذ الرشوة من تجّار المخدرات ليتستّر عليهم ، وله حق معلوم عند التجار وأصحاب الحاجات . . وفى سبيل ذلك

لا تسلم تصرفاته من الظلم والفساد . . هذا الجسد الفارع مفتول العضلات مآله النار .

- لكنه يخدمك لوجه الله . .

- ليس هذا صحيحًا . .

سعلت الأم وقالت :

- لن يعجبك أحد ولو هبط من السماء .

- أنا أنثى ولى أحلامى يا أمى .

- تتصرفين والله يا براعم كأعتى الرجال .

احتضنت براعم أمها وقبّلت جبينها وخديها فى حنان هامسة :

- هل من الإنصاف والعدالة أن أترك أختىّ على هذا الوضع وأتزوج؟؟ إن الفرصة أمامنا ممتدة ولم يأنِ الأوان . .

لكن أمها بقيت على إصرارها بأن الهدف الأول للفتاة هو الزواج ، وتكوين أسرة ، وإنجاب أطفال ، ولها أن تفعل بعد ذلك ما تشاء من أنشطة تجارية ، دون الإخلال برسالة الأمومة ، وإن تخلّف البنت عن قطار الزواج يثير القيل والقال ، ويترك المجال واسعًا أمام الإشاعات والتقولات والأكاذيب التى ينسجها خيال الحمقى والجهلاء والعابثين ، وليس فى قرية

الربايعة كلها فتاة ذات مال وجمال، وتتأخّر فى زواجها، اللهم إلا إذا كانت عاشقة للمال وبخيلة . .

وبراعم تتذكر حادثًا «صغيرًا» مضى منذ سنوات . . مدرّس شاب غريب عن القرية . . كان مفتونًا بتلميذته، ويعطيها الدروس الخصوصية بالمجان . . كانت فى الثالثة عشرة من عمرها . . لم تكن تعرف شيئًا .

نظر إليها طويلاً أثناء الدرس . . بدا عليه الذهول ثم تلطف بها، واختلس قبلة . كشّرت عن أنيابها . . هى تعرف أن القبلة عيب . . وحرام . . يومها جرت . . وأخذت تجرى وتلهث . . وأخبرت أباها بما جرى . . استشاط الأب غضبًا وحمل مسدسه . . وهرول مرتجفًا إلى بيت المدرّس الأعزب، وكانت براعم ممسكة بيده اليسرى تشهد ما يجرى . . صوّب المسدس إليه وقال بحزم :

- إما أن ترحل عن بلدنا أو أقتلك . .

- لقد أحببتها وكنت أنوى طلب يدها .

صرخ أبوها يومها :

- إنها الخيانة .

طأطأ المدرس رأسه دامع العينين وقال :

-أمهلنى يومًا واحدًا، ولن ترانى بعد ذلك .

يومها شعرت «براعم» بالألم العميق، أحست بغريزتها الصدق فى دموعه، وكلماته.. وحاولت أن تفهم معنى كلمة الحب فى قوله.. هل تسرّعت وجنت على ذلك المدرّس الطيّب الذى أحبته هى الأخرى فى هذه السن الصغيرة.. لم يكن هناك مجال للتراجع، فكلمات أبيها هى الفيصل، وهى التى جرت وشكت، ثم إن تقبيلها جريمة.. كل الناس يقولون إن الفتاة التى تسمح للغريب بتقبيلها آثمة.. خائنة.. وما كان عليه أن يفعل ذلك.. ومع ذلك فإن هذه الواقعة كانت تراودها من آن لآخر، وتحاول أن تتذكر تفاصيلها، لدرجة أن شيطانها أوحى إليها ذات يوم بأن تذهب إلى القاهرة وتبحث عن ذلك المدرّس الشاب لتعتذر له عما أصابه من حرج، إذ كان فى وسعها أن تحذّره، وتأخذ عليه عهداً بألا يفعل ذلك.. لكنها ابتسمت من سذاجة أفكارها.. هذه الهواجس لم تعد تناسب فتاة فى سنّها ومركزها.. آه.. قال لها ذات مرة: «عندما تكبرين ستصبحين ملكة جمال» لم تكن تعرف شيئًا عن ملكات الجمال، وعندما أصبحت ملكة العنب أدركت أن ذلك أمر آخر، فعرش الجمال غير عرش العنب.. فريادتها ونجاحها الباهر فى عالم زراعة العنب لا صلة له تقريبًا بجمالها. إذ تستطيع ذلك أية امرأة أوتيت قدراً معقولاً من الذكاء والحصافة وحسن التخطيط والتدبير.

●●●

في يوم الجمعة التالي احتشد الناس في المسجد، فالمعركة ما زالت محتدمة، والشيخ محمد حسب الله سوف يلقي الخطبة، فهل سيتراجع عن أقواله كما يزعم البعض؟ هل يحاول أن يطرح رأيين مختلفين؟ هل سيطر على قوله السابق؟ وكيف يفسّر الأحداث التي جرت وتجري اليوم من جراء فتواه التي قدمت لبعض السفهاء مبررًا للانحراف؟ وفي الوقت المحدد، أنهى الشيخ محمد صلاة الركعتين قبل الخطبة، ثم وقف، وخطا صوب المنبر، لكنه فوجئ بإمام المسجد يقول له:

- معذرة يا شيخ محمد، لقد حضر واعظ المركز، وسوف يلقي الخطبة اليوم..

جُمد الشيخ محمد في مكانه لبعض ثوانٍ دون أن ينطق، ثم طأطأ رأسه وجلس وهو يتمتم «تشرفنا»، وحينما اعتلى المفتش المنبر، أصيب الناس بما يشبه خيبة الأمل، لكن لم يكن أمامهم سوى السمع والطاعة.

وأخذ الخطيب يعدد مناقب الصبر، والآيات الكريمة التي نزلت فيه، ثم الجزاء الذي ينتظر الصابرين في الجنة، وعرج المتحدث على الرضا بقضاء الله وقدره، والدعوة إلى إسلام الأمر لله سبحانه وتعالى، لأن الاعتراض على مشيئة الله نقص في الدين، وتجرؤ على قدرة رب العالمين..

وانتهت الخطبة والصلاة، وعندما همّ الناس بالقيام صاح الشيخ محمد حسب الله قائلاً:

فلتبقوا مكانكم خمس دقائق لو سمحتم.

فانصاع الناس للأمر، وساد الصمت وكأن على رءوسهم الطير، وعيونهم تتركز على الشيخ محمد الواقف فى وسط المسجد، وأسماعهم مشدودة إليه، ترى ماذا سيقول؟؟

- أيها الناس، إذا كانت الحكومة قد أممت المنابر، فإن ساحات المساجد لم تزل حرة، ومصاطب الشوارع يجلس عليها الناس ويتحدثون.. وماذا نقول عن حياتنا التى امتلأت بالمحاذير، وحكمتها الطوارئ؟؟ إننا لسنا ضد النظام، ولكننا مع الحق، ونحن لا ننتهك الأمن، ولكنا نمارس حقنا فى الحرية.. ولا نقول إلا ما جاء به ديننا.

إننى أبصّر الفقراء بحقوقهم عند الأغنياء، ولا أستعدى أحدًا على أحد، وأنا برىء من كل إنسان فى أرض الربايعة يحاول أن ينتزع حقه بطريق غير مشروع... والزكاة حق، لكنها تُعطى ولا تؤخذ قصرًا.. فمن أدّاها فقد أرضى ربه وضميرة، ومن حجبها حجب الله عنه البركة والرضى، أنا برىء من اللصوص والمعتدين، بل أقول يجب الضرب على أيديهم.. برىء من المرتشين سواء أكانوا فى المجلس المحلى أو

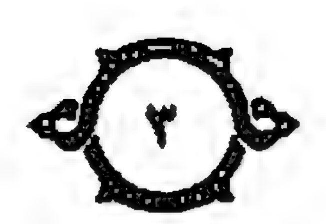
خارجه . . برىء من المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أو يرفعون الأسعار بلا مبرر . .

وتوقف الشيخ محمد عند الاستطراد فى الحديث . . حينما صاح رجل فى الساحة الخارجية للمسجد قائلاً :

- قتيل يا أهالى الربايعة . . قتيل فى عنب براعم . .

فهاج الناس وماجوا، وهرولوا خارجين من المسجد وهم يتصايحون فى دهشة . .

□□□



استبد الغضب «ببراعم»، وكادت تجن، وأخذت تطرح على نفسها السؤال تلو السؤال: ترى من فعلها؟ وجمعت حولها رءوس رجالها وطرحت عليهم نفس السؤال، لكنهم عجزوا عن وضع الإجابة الصحيحة، كان الأمر يبدو كلغز محيّر، فالقتيل رجل متوسط الحال، فلاح، ولديه مساحة صغيرة مزروعة عنبًا تبعد قليلاً عن مكان الحادث، لكنّ جثته في حقل من حقول «براعم» وهنا تكمن المشكلة.

فى التحقيق قالت براعم للمحقق:

– أنا أكره العنف والدماء، ولم يعرف عنى قط أننى خرجت على هذه المبادئ، مهما كان الأمر . . فأنا متعلمة، وأخاف الله، وأستطيع أن أصل إلى هدفى بطرق أبسط كثيراً من ذلك . . الكلمة الطيبة . . التفاهم . . ثم إننى أتسامح مع من يسرقون بعد أن ألقنهم درسًا فى الأدب، وأغدق عليهم . .

وليس بيني وبين القتيل «مصطفى السلاموني» علاقة عمل أو منافسة أو سابق عداء . . الأمر كله فتنة تهدف إلى تشويه سمعتي ، لكن الله سيظهر الحق ، قضيت الليلة كلها في بيتي مع أمي وبعض أقربائي من «شنراق» نتفاوض حول أسعار البيع . . وحضر إلينا عددٌ من أهل الربايعة ، أقسم على ذلك . .

تحريات الشرطة أثبتت أن القتيل قد لقي مصرعه في مكان آخر ، ثم نُقل إلى أرض «براعم» . . هذا المكان الآخر يقع ضمن مزروعات «الراعي كشكل» الذي قال :

– لا يوجد حرّاس لعنبي ، فالناس يعرفون من أنا ، ولا يجرؤ أحد على أن يسرقني .

– لكننا يا راعي وجدنا أن العنب المرفق بالقتيل هو من عنبك فعلاً . . فماذا تقول؟ !

– مؤامرة يا سعاد البك .

– ومن هم أعداؤك؟

– كثيرون . . .

– اذكر واحدًا منهم . .

– سلني عن أحبابي .

- من؟؟

- تستطيع أن تعدهم على أصابع اليد الواحدة.

- وبقية الناس؟

- ملاعين..

إن سيرة القتيل تدعو إلى الدهشة، فزوجته الأولى ماتت في ظروف غامضة، قيل إنه كان يستحمّ في الترعة، ثم قال لها: «ناوليني الملابس» فمدت يدها إليه بالملابس فجذبها إلى الترعة، وأمسك رأسها بقوة، ثم غمسها في الماء حتى غرقت ،ماتت. وسُجِّل الحادث غرقًا.. وشاب الغموض أيضًا وفاة زوجته الثانية.. لكن الناس يؤكدون أنها هي الأخرى ماتت قتيلة.. وورث عن الأولى والثانية مساحة صغيرة من الأراضي الزراعية.. أما زوجته الثالثة التي تعيش معه الآن، فقد أنكرت معرفتها بجرائمه السابقة، لكنها تحت الضغط أقرّت أن زوجها يسرق العنب، وأنه باع قبل ذلك ما قيمته عشرون جنيهًا من العنب المسروق في السوق. إذًا كان القتيل لصًا كما كان قاتلاً من قبل، ولعل هذا هو السبب في عدم تعاطف أهل القرية معه. لكن الشرطة جمعت حرّاس العنب في منطقة الحادث أولئك الذين كانوا متواجدين في تلك الليلة، لكن التحقيق لم يسفر عن شيء.

قال حضرة العمدة:

- ما رأيك يا شيخنا الزاهد؟

قال أبو المجد شاهين:

- عندما لا يحترم الناس شرع الله، ويضعف إيمانهم.. يصبح كل شيء مباحًا لهم.. كل شيء: السرقة.. الزنا.. القتل.. شهادة الزور.. الرشوة.

تنهد العمدة وقال:

- وما هو العلاج يا رجل الله؟.

قال أبو المجد وهو يحرّك حبات مسبحته:

- العودة.

- كيف؟

- افتحوا الطريق.. واحملوا الرايات.. ونادوا في الظلمات قائلين: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين...

جاء تقرير الطبيب الشرعي أن «السلاموني» مات من جراء عدة ضربات بالفأس في رأسه، مما أدى إلى كسر الجمجمة، ونزيف داخلي في المخ، وتكفّلت «براعم» بنفقات المأتم، ومن بينها إحضار مقرئ شهير من المدينة، حتى تهدأ -حسبما تقول

-روح الميت، ويسعد أهل القرية بالصوت الندىّ الجميل، وهو يتلو آيات الكتاب المبين، وحرصت براعم على أن تدعو الشيخ محمد حسب الله كى يلقى كلمة جامعة فى المعزين، يدعوهم فيها إلى التقوى والإيمان والمحبة والتآخى.. ولا بأس من أن يذكرهم بفريضة الزكاة بصفة عامة، فالناس لا يقصرون فى زكاة العنب وحدها، ولكنهم يقصّرون أيضًا فى زكاة المال، وعروض التجارة والركاز، ومختلف المحاصيل والثمار..

أما «عوض العوضى» فقد أخذ يصرخ بغرفة العزل بدوار العمدة ويقول: «برىء.. برىء يا ناس.. أخرجونى من هنا» ولم يستطع العمدة أن يحصل منه على أية معلومات عن اللصوص، ولهذا رأى أن يفرج عنه، بعد ضربه بقسوة، وبعد أن تعهّد بأن يكون مرشدًا عن اللصوص، مقابل أن يعطيه العمدة عشرة جنيهات شهريًا، وأن يكتم سره..

فى إحدى جلسات التحشيش المسائية، بمخبأ أمين، قال «الراعى كشكل» بعد السطل، والدخان الأزرق يموج فى جو الغرفة الضيقة، قال لأصحابه:

– الناس دائمًا يموتون.. الأشرار والأخيار.. والعالم لا ينقص شيئًا.. بل يزيد.. إننى أحل مشكلة تزايد السكان بطريقتى الخاصة تضامنًا مع دعوة رؤسائنا، وذلك بأن أبتر العضو الفاسد.. هل تفهمون معنى كلامى يا بقر؟؟

قهقه المساطيل وقال أحدهم :

- نفهم يا ثور . .

ضجّوا بالضحك ، واتخذ «الراعى كشكل» سمت الحكمة وقال :

- إن مسألة تحديد النسل لا تكون بالحبوب واللولب . .

رد عليه أحدهم قائلاً :

- حدثنا عن اللولب يا مولانا .

رفع «النرجيلة» بيمناه إلى أعلى وقال :

- هذه الجوزة لو مسخت لصارت لولبًا .

- سيكون لولبًا كبيرًا . .

- لا يضر .

وعادوا للضحك كالمجانين ، وعاد الراعى يقول :

- ما الحكم فى رجل يعارض سياسة الدولة ، ويفسد التخطيط السياسى ، وينجب كل عام طفلاً . . ويتزوج من النساء ثلاثًا ؟ ؟

صاح أحدهم :

- خائن . .

- وجزاء الخيانة، ما هو؟؟

- القتل يا راعى . .

- وإذا كان هذا الخائن قد قتل وسرق؟؟

- يستحق الموت حرقًا . .

جذب الراعى نفسًا طويلاً من النرجيلة، ثم أخرجه فبدا له كأنه ذيل سفينة فضاء أمريكية تنطلق إلى السماء . . ثم قال :

- انظروا سوف أصعد إلى القمر وأسبق روسيا وأمريكا . .

وعلّق أحد المدرّسين المشاركين فى الجلسة :

- وستثقب طبقة الأوزون . .

وكزه الراعى قائلاً :

- لقد ثقبناها ألف مرة قبل ذلك . والواقع أن كارثة زيادة النسل تهدد الخطة الخمسية بالفشل . . الرئيس معذور يا رجال . . والسلامونى خائن . . قاتل . . لص . . ولهذا تم تنفيذ حكم الإعدام فيه ضربًا بالفأس ثلاث مرات . . مرة من أجل ضحيته الأولى، وثانية من أجل زوجته الثانية . . والثالثة لأنه سرق العنب . . والمجموع يشكل عقوبة رادعة لانتهاك حرمة تحديد النسل . .

وعلّق المدرّس قائلاً :

- إن الذين يولدون اليوم أجيال من البهائم . . ومع ذلك لا بأس، ذلك لأن هذا يفتح الباب واسعًا أمام الدروس الخصوصية . .

وقال أحد المساطيل للراعى كشكل :

- إذن فأنت قتلت السلامونى، أو على الأقل تعرف من قتله . .

قال الراعى وهو ينحى النرجيلة بعيدًا :

- بالتاكيد أعرف . .

صوّبوا إليه عيونهم وقالوا فى صوت واحد :

- من؟

- الشيخ محمد حسب الله . .

- مستحيل .

- ولم لا؟ إنه يطبق شرع الله . .

- وهل يقتل من يسرق بضعة كيلو جرامات من العنب؟

- لا تسألونى . . اسألوا الشيخ . . وبالنسبة لى فأنا أؤيد تحديد النسل . وإلا قطعت أمريكا عنا المعونات . .

●●●

يعلم الله كم عانى الشيخ محمد حسب الله فى ليلته تلك، لم يغب عن ذهنه جسد القتيل الذى بلغ الستين، وما زال صراخ زوجته يطنّ فى أذنيه، والقتل جريمة بشعة، وهو يفكر فيمن فعل ذلك، قلبه يحدّثه بأن «براعم» لا يمكن أن تفعلها، ترى هل هناك أيد خفية تعبث بأمن القرية، وتريد أن تثير فيها الفوضى والاضطراب؟ ويد من تكون؟؟ إسرائيل؟؟ مستحيل، لأن مؤمرات إسرائيل على مستوى عال. المتطرفون؟؟ لا . . لا . . فهم لا يقتلون آدميًا لم تثبت إدانته رسميًا، ولم يدل بأقواله، ثم إنه لا صلة له على الإطلاق بالسلطة. . أهو ثأر قديم؟؟ لكن القرية لا تهتم كثيرًا بموضوع الثأر، وتترك عبئه على الحكومة ورجال القضاء. .

قال حضرة العمدة «عبد الشافى وهدان» لزوجه حين آوى إلى فراشه:

-الحقيقة أننا لا نعرف شيئًا على الإطلاق. . ألم أقل لكم إنه ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس؟ .

ولقد حدث خلاف شديد بين ورثة «مصطفى السلاموني» وهم أولاده من زوجته الأولى وقد تزوّج بعضهم، وأولاده من زوجته الثانية، ثم الزوجة الثالثة ومن معها من الأطفال، إن مجموع المواليد تسعة ولقد اتهمَت زوجته الأخيرة بأنها تخفى

أمواله، فأقسمت أيمانًا مغلّظة أنها لا تعرف عن ذلك تلك الأموال سوى أنه كان يرصّها فى حزام قماش ويربطها حول وسطه، انتظارًا لشراء فدان جديد من الأرض، وكانت هذه المعلومات بداية لمسار جديد فى التحقيق الذى يجرى حول مصرع السلامونى. وجدّ المخبرون السرّيون فى البحث والتنقيب، وقد قدرت قيمة المبلغ بما يقرب من عشرين ألف جنيه.

تمتم أبو المجد قائلاً:

- لا يعلم الغيب إلا الله. . هذا زمان الغموض والضلال.

لكن العمدة كان واثقًا أن ذلك الصنف من المنحرفين لا يمكن أن يعترفوا إلا بالضرب المبرح، ولا بد أن تجمع الحكومة جميع الأشقياء والمشتبه فى أمرهم، وتخصص لهم فرقة من الجيش تسقيهم العذاب حتى تنجلى الحقيقة، وإلا ضاع كل شىء، وأصبحت البلاد غابة للوحوش الضارية.

قالت له زوجه:

- أنت تعرف القانون يا عمدة.

- قانون الطوارئ يبيح كل شىء. . حتى القتل.

ثم فكّر قليلاً وقال:

- هذا هو الوقت والمكان المناسبان لتطبيق الطوارئ.

ثم نفخ فى غيظ واستطرد:

- كثيراً ما تحدثنى نفسى، بأنى غير قادر على حمل المسئولية، ويبدو لى أنى لم أخلق لهذا الزمان. . فى الماضى كان كل شىء يسير على ما يرام. . لم تحيّرنى جريمة، ولم يستعص علىّ لغز، أما اليوم فقد تحوّل الناس إلى شياطين. . يحبكونَ جرائمهم. . ويزوّرون كل شىء، ويبرعون فى تضليل العدالة. . لذا أقول لا وسيلة سوى الضرب. . لأنهم كلهم. . المجرم والبرىء عبيد. . نحن فى عالم العبيد. .

كان لبراعم عربة صغيرة أنيقة يجرّها حصان، كما كانت لها سيارة أيضًا تقودها بنفسها، أو يقودها سائقها الخاص، وتختار إحدى الوسيلتين - العربة أو السيارة - حسبما يروق لها، وهى تمر يوميًا على حقول العنب، وتتفقد كل شىء بنفسها، وتجمع المعلومات الخاصة بالسقى ومواعيده، وبالمبيدات الحشرية وأنواعها من المصادر الموثوق بها، ولم تكن تكترث كثيراً لما جرى للسلامونى لأنها كانت تحتقره، وإن كانت تستبشع القتل، وتكره إرقة الدماء، وهى تحقق الكثير من الأرباح فى جو الأمان والسلام، وليس لديها أدنى استعداد لأن تكوّن ميليشيات عسكرّية شأن أضرابها من أثرياء الريف، وترجو من الله ألا تلجئها الأيام لفعل ذلك، لأنه يفتح بابًا للخطر الجسيم، ومن هنا كان حرصها على التفاهم والتعاون

وحلّ مختلف المشكلات التى تعترضها حلاً سلميًا. إن الميليشيات خطر مزدوج، فهم يكلّفون الكثير من المال، ويريدون أن يثبتوا جدارتهم وأهميتهم، ومن ثم فقد يفتعلون المعارك، ويصنعون العداوات، ويثيرون الفتن. وإذا ما حدث خطأ - وغالبًا ما يحدث - فستكون هى المعرّضة للخسائر وربما للموت، لهذا اكتفت بالحرّاس الأمناء الذين يسهرون لحماية المزارع، وكانت دائمة التوصية لهم بألا يلجئوا إلى العنف، وما سرق من عنبها فى الفترة الأخيرة، يعتبر قطرة من بحر، لكنها أبدت شيئًا من الانزعاج لخوفها من أن يتسع السطو، ويجر إلى عنف، فماذا سيفعل حرّاسها إذا ما تعرّضوا لسطو مسلّح مثلاً؟

بعثت فى طلب عوض العوضى، عندما علمت أنه ناقم عليها.

وحينما جاء قابلته بابتسامة حلوة وهمست:

- هل أنت غاضب منى؟؟

رفع جلبابه فى حركة سريعة، وأراها آثار الضرب على ظهره وقال فى حدة:

- من المسئول عن ذلك؟

- المسئول عنه هو الذى فعله يا عوض.

- أنت التى حرّضت العمدة.

- مجرّد شكوى رسمية، ولم أطلب منه أن يقبض عليك أو أن يضربك. .

- دائمًا أنا كبش الفداء. .

وما ذنبى؟

- فعل العمدة ذلك لإرضائك.

- إخص عليك. .

كانت الأشعة السحريّة الآسرة تفيض من عينيها الجميلتين فتحمله على أجنحة من الخيال إلى آفاق شجيّة، استسلم كالقط الوديع، وأرخى عينيه، وانفرجت أسارير وجهه وقال:

- كل شىء من أجلك يهون يا بنت الناس الطيبين.

صافية لبن. .

اختطف يدها وقبلها قائلاً:

- أنا ما كرهتك أبدًا، ولا سرقت حبة عنب واحدة من أرضك.

تنهدت فى ارتياح، وأخرجت من حقيبة يدها عشرين جنيهًا ومدت يدها قائلة:

- خذ لتشترى لحمة «عاشوراء».

ظل ساكنًا وقال:

- تكفينى كلماتك يا أصيلة.. لا أنكر أنى مشاغب وحرامى لكنك لست ممن أسرقهم.. أنا أفديك بعمرى دون أى مقابل..

قالت بحزم:

- خذ.

نظر إلى وجهها وعينيها ولم يستطع المقاومة، وتناول منها الجنيهات العشرين، ثم رفعها إلى فمه وقبّلها بخشوع وقال:

- مقبولة منك. سآخذها بركة.. ولن أصرفها ما حييت.. وكيف أفرّط فى هديتك؟؟ عندئذٍ أكون بالفعل نذلاً خسيسًا..

ابتسمت له قائلة:

- أنت طيّب القلب.

- فى الدنيا ظلم كثير، وأنا أكره الظلم.

- لكنك يا عوض..

قاطعها قائلاً:

- مشاغب وحرامى.. أعرف.. أنا لست جمادًا.. أحسّ وأشعر ولذلك لا بد أن أنتقم.. كيف أنسى ضرب الأحذية

على رأسى والسياط على جسدى . . الجائع يسرق . . والمظلوم يصرخ . . ويفعل أى شىء . .

- سأبحث لك عن عمل عندى .

- أتثقين فى لص؟

- لقد وعدت . .

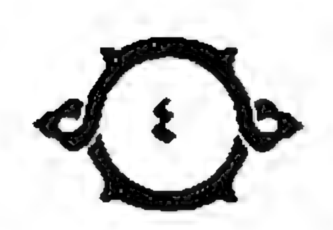
غمرت وجهه السعادة وقال :

- كلام الملوك لا يرد .

- هوّن عليك ، فأنا فلاحة بنت فلاح . . أنا منكم وأنتم منى . .

انهمرت الدموع من عينيه فجأة .

اختطف يدها ، وأخذ يقبلها ويبللها بالدموع .



﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

ترددت تلك الكلمات الطاهرة المؤثرة من مكبّر للصوت فى أجواء قرية الربايعة، فأرهف الناس أسماعهم ليعرفوا اسم من مات، كان الأمر غير طبيعى، وليس كمثل الميتات التى تحدث فى القرية من آن لآخر، فالمتوفى شاب فى الثلاثينيات من عمره، ويعمل أجيرًا فى العراق أثناء حربها مع إيران، واستمر هناك بعد توقف الحرب، وأشيع فى القرية أن الجثة التى أرسلت من العراق تبدو عليها آثار العنف والاعتداء الجسيم، والجمجمة مهشّمة، وهناك طلقة رصاص على ما يبدو فى الصدر، كان الميت - القتيل- ابن خالة الشيخ محمد حسب الله، وقرر طبيب الوحدة استدعاء الطبيب الشرعى، واحتشدت القرية عن بكرة أبيها أمام بيت الميت، وقد هزها النبأ، وسؤال يتردد: لماذا يقتل العراقيون أبناءنا الذين

خدموهم وضحّوا أكبر التضحيات من أجلهم أثناء الحرب وقبلها وبعدها؟ وكتب الطبيب الشرعى تقريره، لكن الأوامر صدرت إليه بعدم إذعته على الناس، وقدم بضعة أفراد من رجال الأمن ليحرسوا الجثة، ويمنعوا الناس من رؤيتها، ثم أمروا بدفنها على الفور، وحراسة القبر لمدة عشرين يومًا على الأقل.

قلّب حضرة العمدة شفته، وهز رأسه فى استغراب، ثم ضرب كفًا بكف وقال:

- هل التستر على الجرائم سياسة؟ لقد أصبح الفساد ينخر فى كل شىء داخليًا وخارجيًا، من سيدفع دية هذا القتيل أو يعطيه حقه؟؟

التهبت القرية بالمشاعر الغاضبة، وخرج الشباب فى مظاهرة صاخبة يلعنون فيها «صدّام حسين» رئيس العراق ونظامه القمعى، وهتف المتظاهرون أيضًا ضد الإدارة المصرية التى تفرّط فى حقّ أبنائها، وتجامل بدمائهم من أجل الحفاظ على العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين.

كان فى القرية أكثر من ألف خرّيج عاطلين عن العمل بعد نوالهم الشهادات المتوسطة والجامعية ابتداءً من عام ١٩٨٢، وكانوا ساخطين على الحياة وما فيها، ولم يكن ذووهم بأقل

منهم سخطًا. ولهذا كانوا ينتهزون أية فرصة للتعبير عن غضبهم ورفضهم، فقد أصبحت الحياة لا معنى لها بالنسبة لهم، إنهم يرون آمالهم تضمر عامًا بعد عام. ولا أمل جديد حتى الآن.. ولهذا اختلطت هتافاتهم وتنوعت..

«بالروح بالدم نفديك يا شهيد».

«يسقط الخونة».

«يسقط أعداء الحرية».

«الثأر الثأر يا جبناء».

«الموت للخونة..» «تسقط إسرائيل وأمريكا».

كانت المظاهرة تطوف حول القرية، وعجز الخفراء وضابط الشرطة ومن معه عن فضّها، وحضر العمدة بنفسه، لكنه كاد يغرق فى طوفان الحشد الكبير، الذى جمع بين الفتيان والفتيات، والفلاحين والمتعلمين وأصحاب الحِرَف، لأنهم يرفضون أن يضيع دم واحد من أبنائهم هدرًا، مهما كانت العوامل السياسية. ولم يطل الوقت، فقد حضر رجال الأمن المركزى يحملون أسلحتهم وهراواتهم وقنابلهم المسيلة للدموع، وحدث اشتباك غير متكافئ، لكنه لم يسفر إلا عن عدد قليل من الإصابات الطفيفة..

حينما حدث الصدام، وضع الناس «النعش» فى الطريق العام على مقربة من «كوبرى» القرية، وتفرّقوا تحت عباءة من الدخان الكثيف عبر الجهات المختلفة، لكن الشيخ محمد حسب الله ظلّ رابضًا فى مكانه، ممسكًا بالنعش، برغم أنه كان يسعل ويكاد يختنق ويُغْمَى عليه من أثر القنابل المسيلة للدموع، وامتدت يد أحد العسكر بالإيذاء له حيث ضربه بعصاه على جسده ورأسه، فسال الدم الأحمر على جلبابه الأبيض الناصع، لكنه لم يتزحزح من مكانه.

وقدم نحوه أحد الضباط وقال فى خشونة:

- أنت ملتحٍ.. وتقود المظاهرة.. لا بد أنك من الجماعات الإسلامية.

ثم أشار إلى العسكر:

- ضعوا «الكلابشات» فى يده وسوقوه إلى السيارة..

قال فى استسلام:

- ليس هذا بجديد عليكم.. افعلوا ما شئتم يا أبطال الطوارئ.

لم يقبض على الشيخ محمد وحده، ولكن سيق أكثر من أربعين شابًا إلى مركز الشرطة بناءً على التحريات، وكان

أغلبهم من الشباب الملتحين . . من المضحك أن «عوض العوضى» كان من المقبوض عليهم، وكذلك «الراعى كشكل»، ضحك الرجل الزاهد أبو المجد شاهين وقال :

جمعوا الشامى على المغربى . . كان يمكن أن أكون مع المقبوض عليهم لولا أننى سبقت إلى المقابر لأجالس الموتى بعض الوقت . .

ونسى الناس إلى حين مصرع السلامونى، وأخذوا يكثرون الحديث عن الأحداث الآثمة التى تجرى اليوم فى العراق، وقتل المصريين هناك بسبب وبغير سبب، وسكوت الحكومة المصرية المخزى عن ذلك، على الرغم من علمها أن ضحايا الاعتداءات من المصريين تأتى إلى مطار القاهرة الدولى يوميًا، وأن الصحافة الأجنبية ووكالات الأنباء بدأت فى نشر إحصاءات دقيقة مخيفة عن ذلك . .

لطم عوض العوضى على وجهه والحديد فى يديه قائلاً :

- أنا متّهم . . دائمًا متّهم . .

ثم اتجه إلى السماء وقال فى ضراعة :

- إلى متى تتركهم ينهشون لحمى، ويهتكون عرضى . . ؟؟ أنا العبد الضائع العاصى . . لكنك لن تحرمنى من رحمتك . .

قال أبو المجد شاهين حينما أخبروه بما قاله عوض :

- كفى يا عوض. . إن السماء اهتزت لدموعك وضراعتك على الرغم من عصيانك القديم. .

لم يكن عوض أمامه، واستعجب الناس كيف يحادث أبو المجد شخصًا غائبًا قد أودعوه الزنزانة، وأدرك أبو المجد ما يجول بخواطرهم، فقال:

- إنى أراه كما أراكم الآن. . عوض يتلقى الإهانات مظلومًا. . انظروا. . إنه يقترب من الله. . لم يعد له ملجأ سواه. . انقطعت وشائجه عن أهل الأرض. . دعوا العوضى وشأنه.

قال أحد الواقفين:

- ألا ترى الشيخ محمد حسب الله؟؟

- إنه يحلّق بأجنحته فى السماء. . ذلك لأنه قطب من الأقطاب.

ثم صرخ أبو المجد وقد أغمض عينيه، ورفع وجهه إلى السماء:

- «حى. . قيّوم. . يقول للشىء كن فيكون».

ثم طلب منهم أن يجلسوا لذكر الله، وأن يسبّحوا الله ويحمدوه ألف مرة. .

قال حضرة العمدة لقائد الحملة التأديبية :

- إنكم يا باشا تسيئون إلى أنفسكم وإلينا .

قال الضابط فى عنجهية :

-أنت يا عمدة لا تعرف الأبعاد الحقيقية لما جرى .

- بل أعرف .

ماذا؟ .

- أهل القرية شعروا بالحزن والغضب من أجل ولدهم الضحية ، وهذا أمر طبيعى جداً . .

- الحزن فى القلب يا عمدة ، وليس بالمظاهرات . .

- إنهم يعبّرون عن أحزانهم بطريقتهم .

- قانون الطوارئ يمنع المظاهرات .

- لم تحدث مظاهرة بالمعنى الصحيح .

- فماذا تسمى ما جرى؟؟

- جنازة . . جنازة حارة لا أكثر . . الناس فى القرية عندما يحزنون يلطمون الخدود ، ويشقّون الجيوب ، ويلطخون وجوههم بالطين . . لكن ما حدث اليوم كان جنازة متحضرة . .

- لقد هتفوا ضد الحكومة يا عمدة . .

- ليكن . .

- كيف تقول هذا الكلام؟ إنها مؤامرة، ونعرف من دبرها، وسنقدمهم لمحكمة أمن الدولة . . وستذهل عندما تقرأ اعترافاتهم .

الناس فى القرية ، خاصة المعمّرين ، لا يذكرون حدثًا كهذا من قبل فى تاريخهم ، كل ما يذكرونه يوم أن جاء «الهجّانة» على إبلهم ومنعوا التجوّل ، وكانوا يضربون المخالفين بالسياط . . حدث ذلك منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا حينما ثار الناس على طغيان ملاّك الأراضى ، الذين رفعوا الإيجارات رفعًا كبيرًا ، أما الآن فقد استعملت القنابل الدخانية والعصى ، وكان التلفزيون يقوم بالتصوير ، كما كان بعض العسكر والضباط يمسكون مسجلات صغيرة فى أيديهم يتحدثون فيها ، ويستمعون إليها وينفذون أوامر ، لقد أصبح القمع فنًا له أصوله وضوابطه .

وجمعت «براعم» حرّاسها ، وهى شديدة الارتباك ، «إننا لا يصحّ أن نزجّ أنفسنا فى مثل هذه الأمور . . لسنا من أهل السياسة ، ولكن قضيتنا الأولى والأساسية هى العنب . . هل تفهمون ما أرمى إليه؟» هكذا قالت ، وعيناها تتحركان فى ذكاء وقلق وتوجس .

وارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة وهى تقول:

- ثم إن منع التجول سيحرم اللصوص من الانقضاض على محاصيلنا . . ويجب أن نفكر بسرعة فى البيع مخافة أن تتعقد الأمور.

وذهبت «براعم» فى الصباح الباكر إلى المدينة وحدها دون أن تخبر أحداً، بالطبع كان سائقها معها، لكنها تركته واقفًا فى الظل أمام أحد الأضرحة، ودخلت هى من باب، وخرجت من باب آخر، حتى لا يعرف السائق وجهتها . . سارت فى شوارع المدينة متلفعة بعباءتها السوداء الرقيقة، سمعت أحد الشباب المتسكعين يقول:

- معقول القمر يظهر فى الصبح؟

أسرعت خطاها، وقصدت محاميًا كبيرًا تعرفه، وطلبت الانفراد به.

- جئتك فى أمر مهم.

- رهن إشارتك.

- هل عرفت ما جرى فى الربايعة؟

- قرأت عنه فى صحف المعارضة اليوم.

- ما رأيك أنت؟

- الحكومة تقول إنها مؤامرة، والصحف المعارضة تنفى ذلك.

- اقتربت منه وقالت هامسة:

- هل تصدقنى؟؟

- بالتأكيد.

- إنهم مظلومون . . أنا ليس لى صلة قرابة بأحدهم . . لكن قلبى يوجهنى من أجلهم . . فهم أهل بلدى . . خذ.

ووضعت فى يده بضعة آلاف من الجنيهات قائلة:

- تحت الحساب . . واختر ما شئت من إخوانك المحامين، ولا بد أن تبذلوا أقصى جهودكم للإفراج عنهم، خاصة الشيخ محمد حسب الله . .

- يقولون إنهم متطرفون، ويشكلون جمعيّة سرية . .

- هذا كذب . .

- حاضر . .

- لى شرط واحد . .

- إنى سامع . .

- لا تكشف عن اسمى لأحد . . تستطيع أن تقول إنك

متطوّع للدفاع عنهم . . وكذلك زملاؤك . . لكن حذار أن يُذكر اسم «براعم» .

شعرت بالارتياح وهى عائدة إلى قريتها ، لقد استطاعت أن تقوم بالواجب وبالطريقة المناسبة . . لشد ما يؤلمها أن يتعرّض رجل فاضل مثل الشيخ محمد حسب الله للإهانة والإيذاء ، قالت بامتعاض وبصوت عالٍ دون أن تدرى :

- إنهم لا يوقّرون أحدًا .

سألها السائق عمّا تقول ، غمغمت فى ارتباك : «لا شىء لا شىء» .

●●●

«شر البليّة ما يضحك . . » .

كيف يقبضون على الحشاش «الراعى كشكل» ويتهمونه بالعمل فى السياسة والتآمر؟ لو أمسكوا به بسبب تعاطى وترويج الحشيشة لكان الأمر طبيعيًا ومقبولاً ، أما أن يأخذوه مع السياسيين والمتطرفين فهذه مزحة غريبة ، تجعل الكثيرين من أهل القرية «يموتون من الضحك» على الرغم من سحابة الحزن التى تظللهم . .

ثم عوض العوضى . . يا سبحان الله . .

- هل سمعتم عن عمى الألوان، يا أيها الخلاّن؟

- سمعنا يا سيدنا . .

-هذا زمن التمثيل والتمثيليات. لقد تربّع التلفزيون على العرش. . الآن أصبحنا نصنع «الوقائع» ونشكّلها حسب هوانا . . ليس لدينا واقعيّة. نحن نعيش أضغاث أحلام شريرة . . نؤلف الأدوار ونركبها على الأشخاص . . آه يا دنيا السلبيات والأكاذيب . .

هكذا تكلم أبو المجد شاهين، ولم يكن الرجل الزاهد الورع يتصور أن كلماته ستصل بسرعة البرق إلى بعيد، فيأتون فى المساء، ويقبضون عليه . .

أشرق وجهه بالفرحة . . كان طويل القامة، طويل العنق . . النور معتمر وجهه، ونادى فى الليل :

- معاذ الله . .

وسرى النبأ كالنار فى الهشيم، وخرج الدراويش مخالفين بذلك أوامر منع التجول، وأخذوا يكبّرون ويهلّلون بصوت عالٍ، ومن عجيب الأمر أن رجال الأمن المركزى قد بهرهم المشهد حيث التكبير والتهليل والغناء، فنسوا أنفسهم واندمجوا فى الجوقة . . وأخذوا هم أيضًا يهللون ويكبّرون . .

وركب العمدة على جواده، وأخذ يشهد ما يجرى فى ذهول، وتمتم:

- آه يا حكومة . .

وكزّ على أسنانه فى غيظ وصاح:

- يا أهالى البلد . . استمعوا إلىَّ جيدًا . . أشهدكم أننى أقدّم استقالتى منذ الآن، وأن أخلع عنى «العُمُدية» كما أخلع حذائى هذا . .

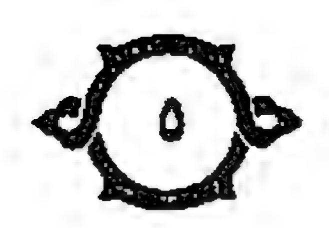
ومن المذهل أنهم قد دهموا بيت أبو المجد، وقبضوا عليه هو الآخر بعد عودته من المقابر. قال أبو المجد شاهين:

- «كنت واثقًا أن الله لن يحرمنى من نعمة الظلم».

قالوا له والحديد فى يديه: «وهل الظلم نعمة يا مولانا؟؟».

قال: «يا ليت قومى يعلمون . .».

□□□



قال الناس إن حضرة العمدة رأى فى منامه، أنه ذهب إلى ميضأة المسجد، فسمع من يقول له: «يا عبد الشافى اخلع عنك ملابسك النجسة، واغتسل هنا وتطهّر، والبس ثيابًا طاهرة، ثم اذهب إلى بيتك، ولتبكِ على خطيئتكم»، وحينما أفاق العمدة من نومه، استغفر الله وبسمل وحوقل ثم أيقظ زوجته، وروى لها الرؤيا، وكان تفسيره لها أن منصب العمدية وبال وشر، وأنه لا بد أن يخلع عنه هذه الشبهة، ولذلك استقال فى اليوم التالى بعد أن جرى ما جرى.

أما نائب الدائرة «عبد السميع بك الطناحى» فقد أقبل فى سيارته المرسيدس، ونظّارته السوداء، وقصد لتوّه إلى دوار العمدة، فقيل له إنه غادر القرية، وخرج من الدوار، وأخذ يبحث عن أنصاره الكبار فى المعركة الانتخابية التى خاضها مستقلاً، ولقد أيده الناس كراهية فى حزب الحكومة وتصرفاته الفاضحة، وضيقًا بعجز الأحزاب اليسارية واليمينية عن القيام

بواجباتها، وكان الرأى أن يعقد الطناحى بك اجتماعًا فى المسجد الكبير، لتدارس الموقف المتأزّم، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه . .

احتشد الناس فى المسجد، وصلّوا الظهر، ثم وقف النائب فى صحن المسجد، يتحدّث عن الأمن الاجتماعى، والحوار الديمقراطى، واحترام كرامة المواطن، وضرورة الانحياز إلى الشريعة، وحق كل إنسان فى أن يرفع شكواه إلى القضاء العادل، وإلى ممثليه فى مجلس الشعب.

ثم قال -من خلال مكبّر الصوت- والبلد تسمع ما يقول: «إننا نشجب بشدة سياسة القمع التى مارستها السلطة، ونستنكر تصرّفات عسكر الأمن المركزى، وسنحتفظ لأنفسنا بحق الرد الديمقراطى المناسب، فى الوقت المناسب، أما أولئك الذين انتهكوا حرمة القانون، وداسو كرامة الإنسان فسيكونُ عقابهم رادعًا، وسيلاقون المصير الأسود الذى ينتظر كل طاغيّة جبار».

وتصايح الناس: «الله أكبر . . يسقط الظلم . . الله أكبر الله أكبر».

ورأى الناس المحتشدون بالمسجد الضابط الموكول إليه قيادة الحملة يعبر بوابة المسجد، وحوله عدد من العسكر، ثم يتقدم

بخطى ثابتة هادئة، والناس يسددون إليه أبصارهم مذهولين، ثم رأوه يمسك بخناق النائب، ويجره إلى الخارج، و«الطناحى بك» يتشبث بعمود المسجد ويقول: «إننى أتمتع بالحصانة، وليس لأحد الحق فى القبض علىّ، وسأقدم استجوابًا عاجلاً لوزير الداخلية تحت قبّة مجلس الشعب..»، ودُهش الناس إذ شاهدوا بأعينهم كيف أن الضابط جرّ النائب إلى الخارج فى احتقار واستهتار، ثم أخذ يكيل له الصفعات والركلات، والعسكر يفعلون مثلما يفعل، وهرول الناس من أبواب المسجد المختلفة، وبعضهم اختبأ فى دورات المياه، أوفى خزانة المنبر، وفريق ثالث تشبث بأستار ضريح «سيدى السباعى» رضى الله عنه وأرضاه. كان أهل القرية لا يصدّقون ما يحدث، فهذه هى المرّة الأولى التى يصطدمون فيها مع الحكومة لأسباب معروفة، وكيف يصدّقون أنه فى يوم واحد تمّ اعتقال الشيخ محمد حسب الله وأبو المجد شاهين؟؟ وكيف يتصوّرون أن الراعى كشكل وعوض العوضى، يوضعان جنبًا إلى جنب فى سيارة الشرطة مع حسب الله وأبو المجد، وغيرهم من الشباب؟ والقرية واثقة أنها لم ترتكب جريمة حينما طالبت الحكومة باتخاذ الإجراءات الوطنية والإنسانية لضحيّة العراق، وفى الوقت نفسه قدّم العمدة استقالته، ثم اختفى، وجروا النائب المحترم

تمثل الشعب جراً، وأوسعوه ضرباً مع أنه يتمتع بحق الحصانة، وحريّة التعبير عن الرأى.

براعم آوت - هى وحراسها - إلى حقول العنب كى تشرف بنفسها على سقى الأشجار، ورش المبيدات، والتخلّص من الحشائش الضارة؛ لأن رعاية المزروعات والحيوانات لا بد وأن تستمر مهما جرى من أحداث، وإلا بارت الأرض، وضاعت المحاصيل، وهى تؤكد فى كل موقف أنها لا تحب السياسة، ولا تتعامل مع رجالها، وإن ما فعلته بالنسبة لتوكيل محامين للدفاع عن المظلومين كان عملاً إنسانيًا، لا يخفى وراءه أى هدف مادى أو اقتصادى أو سياسى. .

فى اليوم التالى سجّلت إحدى صحف المعارضة واقعة الاعتداء على نائب الدائرة المستقلّ، لكن مصدراً مسئولاً من وزارة الداخلية نفى ذلك بشدة، وأكّد أن الوزارة تتصرّف فى إطار القانون، واحترام القانون وحريّة الرأى، وأن قانون الطوارئ يطبّق فى أضيق نطاق، وأنه لا يستخدم إلا ضد المتطرفين وتجار المخدرات، ومحترفى الإجرام، وأن هدف الوزارة الأساسى هو الحفاظ على الأمن، وعدم إعطاء فرصة لأعدائنا فى الخارج، كى يفرّقوا صفوفنا، ويبذروا بيننا بذور الفتنة. .

ومن المعروف أن خروجنا من المأزق الاقتصادى لا يتم إلا بتوفير الأمن والجوّ المشجّع للاستثمارات ورأس المال العربى والأجنبى.

لكن النائب المستقلّ «عبد السميع بك الطناحى» وقف أمام أعضاء المجلس، واستفاض فى وصف ما تعرّض له من إهانات على مرأى ومسمع من أهل الربايعة الذين هم على أتم استعداد للإدلاء بشهادتهم.

لكن نواب الحكومة قابلوه بالصياح والاستنكار، وطالبوا رئيس المجلس بمنعه من مواصلة الحديث، واعتبروا ما يقوله الطناحى مكيدة مدبّرة يقف وراءها رجال أحزاب المعارضة الحاقدون، والمتطرفون وأذناب الإرهاب، خاصة المتاجرين بالدين.

وتحت ضغط الأغلبيّة، وتعليقات وزير الداخلية اللاّذعة، أمر رئيس الجلسة بالانتقال إلى مناقشة قضية «القروض الخارجية» المتفاقمة..

أهل الربايعة أخذوا يضربون كفًا بكف، ويستعيذون بالله من الشيطان الرجيم. وبعضهم أرسل شكاوى إلى رئيس الدولة يستنجدون به، ويشرحون حقيقة ما جرى، والبعض الآخر أرسل خطابات شتائم وسب لرئيس المجلس

وللداخلية، ولكن بدون توقيع، والبعض سافر إلى العاصمة ليروى بنفسه لمحررى الصحف الأحداث التى وقعت.

تقول العجوز مسعدة أم محمد حسب الله:

- عليه العوض يا بلد.

أما سعادة أحمد بك علام رئيس المجلس المحلى، فقد علّق أثناء الاجتماع الدورى للمجلس:

- بلد لا تمشى إلا بضرب الحذاء.

فيرد عليه أحد الأنصار:

- صدقت ورب الكعبة.

ويتحدث البك عن الوضع الأمنى فى القرية، وتأييد الإجراءات التى اتخذتها الحكومة حيال ذلك، ثم دعا الأعضاء للانتشار بين الناس وتجميع الأخبار عنهم أولاً بأول، والإبلاغ عن أى معارض للحكومة باعتباره إرهابيًا يجب القضاء عليه.. ولما سألوه عن موضوع القتلى المصريين فى العراق قال بثقة غريبة يحسد عليها:

- هذه مسائل حساسة يقدّرها المسئولون، ولا يصح الخوض فيها، وستتخذ الحكومة -كما عهدناها- الإجراءات المناسبة لذلك.. ولن تحلّها تلك المظاهرات الصبيانية الطائشة..

ولما سئل عن الجريمة التى ارتكبها أبو المجد شاهين أجاب :

- الحكومة قد ترى بوسائلها ما لا نستطيع رؤيته . . وأبو المجد مجرّد فرد من عامة الناس ، وإذا كان مخطئًا فلا بد أن ينال جزاءه . . ثم هناك الشيخ محمد حسب الله قريب القتيل . . أنتم تعرفون أنه يثير الكثير من المشكلات لنا وللحكومة تحت ستار الدين ، هل نسيتم نقده لنا؟؟ نحن رجال سياسة ولا نكترث للعواطف الجماهيرية الساذجة . .

●●●

فضّت الجلسة :

صدرت الأوامر العليا ، بأن «تطبخ» قضية على مستوى مقبول من أحدث الربايعة ، بحيث تكون مقنعة للرأى العام وتبرر الإجراءات التى اتخذتها الجهات المسئولة بالنسبة للعنف الذى جرى ، وشمّر رجال الأمن عن ساعد الجد ، فمهمتهم الأولى هى إطاعة الأوامر ، دون نظر لأية اعتبارات أخرى مهما كانت . القاعدة تقول عندهم : إن رجل الأمن لا يصح أن يحصر تفكيره فى الواقعة التى ربما قد تكون تافهة فى حقيقتها ، ولكن عليه أن يمد بصره إلى جميع الاتجاهات ، وأن يكون ذا خيال واسع ، وقدرة على الإبداع شأنه فى ذلك شأن الفنّان الموهوب ، فإذا لم تكن هناك قضية فعليه أن يخترعها ، وإذا

كانت صغيرة فواجبه أن يبرزها فى ثوب من الخطورة والإثارة، والهدف من ذلك كله شغل الرأى العام بقضية لها وزن وأبعاد، وبث الرعب فى قلوب الذين يفكّرون فى المعارضة أو الانقضاض على السلطة، وذلك يعتبر وقاية وحصانة لأمن السلطة والمجتمع، ولا يصح عندئذ التفكير كثيراً فى القانون والعدالة وكرامة الإنسان وغير ذلك من الشعارات الضعيفة، إذ المهم أولاً وأخيراً الاستقرار وعدم تعكير صفو الحياة، وهذا فى حد ذاته أعظم عمل وطنى.

قال الضابط:

- ابدأ بذلك التافه الجبان عوض العوضى.. إنه يصلح لأن يكون مفتاحًا للقضية..

كان عوض العوضى مرتاعًا حائراً تكاد نفسه تطير شعاعًا، فالمسئولون هنا صامتون واثقون من أنفسهم، يتحركون بحساب وثقة. وغير متعجلّين فيما يبدو على الوصول إلى شىء، وكأنهم متأكدون من تحقيق كل ما يريدون. لم يجد هنا ذلك الصياح والتهديد والوعيد والضربات العشواء التى كان يتعرّض لها قبل ذلك فى مركز الشرطة.. لدرجة أنه تساءل بينه وبين نفسه: «أين نحن؟».

كان على استعداد لأن يقول أو يعمل أى شىء حتى يفيق

من هذا الكابوس القاتل الذى لم يرَ له مثيلاً فى حياته القديمة، وكان يريد أن يتكلّم حتى ينفّس عن الكرب الذى يعتلى روحه وعقله.

سأله الضابط:

- اسمك وسنك وعملك يا روح أمك.

- ....

- متى دخلت التنظيم؟

تلفت عوض حواليه، وكأنه يستنجد، ومد يديه المفتوحتين فى ذل وانكسار قائلاً:

- يعنى.. آه.. ما هو التنظيم؟

- أنا لا أطيق اللؤم والتغابى.

- فى عرض النبى أنا لا أفهم..

- تنهّد الضابط قائلاً:

- اللهم طوّلك يا روح.. تنظيم يعنى عصابة.. «ربّاطية» باللغة الشعبية.. ناس يجتمعون ويتفقون على شر.. على مؤامرة.. على عمل مظاهرة.. هل فهمت يا حمار؟؟.

هزّ عوض العوضى رأسه تأكيدًا بأنّه قد فهم ما يقال:

- نعم يا بك. . كـان ذلك أيام الطيش. . والجـهل. . والإفلاس. . كان ذلك منذ عشر سنوات. . واتفقنا على سرقة القطن كى نبيعه ونشترى البلح والسجائر والعيش الطرى والطعمية. .

اعتدل الضابط فى جلسته، وخلع نظارته السوداء، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء يوشيها الحقد وهدر:

- علّموه كيف يكون الكلام.

يروى عوض العوضى فيما بعد ذلك الموقف الصعب، فيقول وجسده يرتجف: «فتحوا علىّ أبواب جهنم. . كرابيج. . عصى. . صفعات. . لكمات. . ركلات. . نار. . والله العظيم نار. . إبر. . خنق. . دم. . وأنا أتواثب كالقرد الذى وضعوه فى فرن. . تذكّرت كلمات الشيخ الذى كان يحدّثنا من قديم عن جهنّم التى أعدَّت للكافرين. . أيقنت أنه يوم الحساب. . صرخت: «تبت يا رب أنا عبدك الخاطئ الفاسق. . سامحنى يا أرحم الراحمين». . وكان آخر ما سمعته ضحكاتهم العالية. . ثم غبت عن الوجود. . وتمنيت وأنا أغوص فى الإغماء ألا أفيق أبدًا. . ولا أدرى كم مضى من الوقت. . حينما استيقظت كان جسمى مبللاً. . وكنت

أستشعر قدراً من النشاط والألم. . سمعتهم يقولون: «أعطوه حقنة أخرى من الكافور. . ».

أعطانى المخبر زجاجة من البيبسى باردة جداً. . شربتها دفعة واحدة. . كنت جائعًا. . لكن الضابط أشعل لى سيجارة وقدمها إلىَّ وهو يبتسم. . ويبدو أنهم ندموا أشد الندم على ما فعلوه بى. قال الضابط:

- نريد أن نساعدك.

- شكراً يا بك. .

- لكن لا بد أن تساعد نفسك.

- مستعد أن أنفّذ ما تطلب. .

رد إليه نظرات صارمة حاسمة وقال:

- رئيس التنظيم هو الشيخ محمد حسب الله.

- نعم الرجل يا بك. .

- وأعضاء التنظيم أبو المجد شاهين والراعى كشكل وطلبة المعاهد والمدارس الذين قبضنا عليهم معك. .

- أعرف أسماءهم واحداً واحداً.

- بدأت تتجاوب معنا. . أنت مواطن صالح. . وأنت كنت معهم فى التنظيم. . أليس كذلك. .

- أنا موافق على كل ما تقول يا بك .

- أنت الذى تقول .

- أنا وأنت واحد . . وهل من المعقول أن تقول كلامًا غير صحيح . انتهى عوض العوضى من تدخين السيجارة وقال :

- لا أستطيع الوقوف يا بك .

صاح الضابط بأحد المخبرين :

- أحضروا له كرسيًا . . عوض مواطن متعاون . .

حينما جلس عوض شعر بالاسترخاء، وجاءه سؤال جديد :

- ما هى أهداف التنظيم؟ .

- قتل صدام حسين . . لأنه يقتل إخوتنا فى العراق . .

صرخ الضابط بغتة وقال :

- يا ابن الكلب نحن فى مصر، ولسنا فى العراق .

- حقك علىّ يا بك . . بصّرنى . . ماذا أقول؟

- تقول الحقيقة . . تقول إنهم إرهابيون، ويريدون قتل الرئيس والوزراء حتى يستولوا على الحكم . .

قال عوض العوضى :

- ليس فى الربايعة أحد يقول هذا الكلام . . متى حدث ذلك يا بك؟

- ألم نتّفق على أن تعترف حتى نخلى سبيلك؟

- تنظيم ممكن!! لكن قتل!! هذا حرام . .

- ظننت أنك وعيت الدرس، لكن يظهر أننا سوف نلقنك الدرس مرة أخرى .

هبّ عوض واقفًا، ورفع يديه فى ضراعة :

- لا يا بك . . لا يا بك . .

- فلتتكلم إذن .

حكّ عوض قفاه، وبدت الحيرة على وجهه وقال متذللاً :

- لكن أبو المجد رجل من أولياء الله الصالحين لا يضرب ولا يقتل . . والشيخ حسب الله لم يعتد على إنسان بيده قط . . فإذا اتهمتهما كذبًا لقتلت نفسى . . الموتَ ولا هذا . .

- والراعى كشكل؟؟

- ملعون . . منجوس . . حشاش . . ممكن أن يعملها

- والتلاميذ . . ؟

- لا تربطنى بهم صلة .

- لكنهم هتفوا فى المظاهرة ضد الحكومة .

- صحيح .

- والذى يشتم الحكومة ، يمكن أن يتخلص منها . .

- بالضبط .

- إذن هم يريدون قلبها .

-جائز .

صفعه الضابط فجأة دون انتظار ، فصمت عوض برهة حتى استعاد هدوءه وقال وقد وضع يده مكان الصفعة :

- فعلاً كانوا ناويين على قلبها صراحة . نعم صراحة . . أتريد ذلك؟؟

- لم يبقَ إلا أبو المجد وحسب الله . .

أحاط المخبرون بعوض العوضى ، وأعينهم تطلق شرارًا ، الأوجه الممتلئة المحمرة ، والعود الفارع ، والأيدى الغليظة ، والكرابيج المدلاة ، والفلقة ، والعصى ، والكحول الأبيض إلى جوار عيدان الكبريت . . إذًا سيفتحون أبواب جهنم من جديد . . «يا ويلك يا عوض . . إن الله يعذبك لما اقترفت من سيئات» أفاق من أحلامه السوداء على صوت المحقق :

- انطق يا حمار . .

حك قفاه مرة أخرى. . آه. . يا روح ما بعدك روح. . والمسامح كريم. . وليس لى مخرج:

- نعم يا بك. . الشيخ محمد حسب الله كان يقول إن الحكومة ظالمة. . وأبو المجد كان يصلّى ويدعو الله أن يقطع دابر الظلم والظالمين. .

- إذن المقصود حكومتنا يا عوض. .

- نعم. .

- وما معنى ذلك؟؟ هل يعنى سوى الرغبة فى قلبها؟

- تمام يا بك.

- اتفقنا. . يمكنك الآن أن توقّع على المحضر. .

- أنا أبصم يا بك. .

- لا بأس. .

عاد عوض إلى الزنزانة، وهو يحمد الله على أنه نجا - ولو مؤقّتًا - من حساب الزبانية، وارتمى على الأرض منهوك الجسم والعقل والروح، أحضروا له الزاد، كان جائعًا جدًا وأخذ يحشر فمه بالطعام، لكنه توقف فجأة، طاف برأسه خيال العابد الزاهد أبو المجد شاهين، والرجل الصالح حسب الله، كيف سوّلت له نفسه أن يقول فى حقهما ما قال؟ ألكى

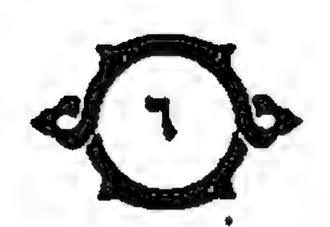
يحافظ على حياته؟؟ ليته مات ولم يفعل ما فعل. وهل فى حياته -حياة الخطف والسلب والهروب واللعنات- ما يحرص عليه؟؟

لقد ظن أن حياته ستبدأ من جديد عندما وعدته براعم بالعمل عندها، وأعطته عشرين جنيهًا. . عندها فكّر فعلاً أن يغيّر من نظامه، ويدخل ميدان العمل الشريف. . لكن للأسف وقع فى المصيدة وهو يسير فى الجنازة. . إنه دائمًا يشارك فى كل جنازة وفى كل فرح، ويهتف مع الهاتفين من كل لون، ويبكى مع الباكين، إنه يستخدم عواطفه وطاقته فى كل ما يعود عليه بالنفع. . يسير فى موكب كل مرشح فى الانتخابات، ويأخذ المال من كلا المتنافسين، ويأكل على موائد الجميع. . لكنه فى يوم الانتخابات لا يدلى بصوته لأحد. .

لقد ارتكب الكثير من الموبقات، لكنه يشعر اليوم أن الشهادة الزور التى دفعه إليها الضابط أشد الموبقات ضلالاً فى حياته. . كان فى مقدوره أن يفعل أىّ شىء إلا أن يتهم أبو المجد وحسب الله. . تمتم:

- «أنت يا عوض وسخ وابن حرام».

□□□



- أحضروا ذلك المارد النحيل ذا العمامة الخضراء . . إنه مخزن أسرار وأخبار . . أنا موقن من ذلك .

قالها الضابط وهو يتثاءب ، ويرتشف كوبًا من الشاى الأسود ، وينفث دخان سيجارته «السوبر» .

وأحضروا الشيخ أبو المجد شاهين ، كان يمشى بطىء الخطى ، مغمض العينين ، شفتاه لا تكفان عن التسبيح بصوت لا يُسمع .

قال الضابط فى سخرية خفية :

- اجلس يا مولانا .

- إننى واقف هكذا على بابه منذ أكثر من أربعين عامًا طالبًا المثول بين يديه .

كان الضابط متعبًا بعض الشىء قال وهو يكظم غيظه :

- عمن تتحدث؟

- عن الوقفة.

- أية وقفة يا رجل؟

- يقول العارفون إن الوقفة هى العبودية المطلقة التى تقرّب من الحق جلّ وعلا..

- أسألك عن المظاهرة التى شاركت فى قيادتها.

- الجنازة.

- بل المظاهرة.

- إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان.

- الناس فى الجنازة يبكون.. ويصرخون.. لكنهم لا يهتفون ضد الحكومة وقيادتها، ويهددون أمن البلد.

- وما شأنى بغيرى؟

- أنت جزء من مجتمع.

- الشمعة تضىء الظلمات للناس، ولكنها تحترق وحيدة.

- ما صلتك بالجماعات الإسلامية؟

- كصلتى ببقية الخلق.

- أتعرفهم يا أبو المجد؟

- نحن لا نعرف إلا الظاهر، والله تكفّل بالباطن.

- قال الضابط وهو يتململ:

- ما هى أهداف التنظيم؟

- النجاح.

- النجاح فى ماذا؟

- كسب رضى الله.

- تقصد أن قلب نظام الحكم عمل مشروع.

- الناس تائهون.. هم لا يعرفون المشروع من غير المشروع.

هتف الضابط فى غيظ:

- افتح عينيك وتكلم بوضوح وإلا........

- فتح أبو المجد عينيه، فوقفتا على العينين الغاضبتين للضابط، والوجه المكفهرّ، والشفتين المزمومتين. والتماثيل الصمّاء التى انتصبت حوله، ثم أغمض أبو المجد عينيه مرّة أخرى بسرعة وقال:

- أنا رجلٌ فلاّح.. دعانى الداعى فى ظلمة الليل. فلبيت النداء ودموعى تسيل على خدىّ ولحيتى.. ناداه قلبى: خذنى

إليك يا واهب الحياة والرزق، يا ملك الملوك، وجذبني الشوق إلى الأعتاب. وجدتني أطير.. وأطير بعيدًا عن الهوى الطائش.. وسمعت أصواتًا تقول لي: كن معنا.. أصبحت منا يا أبو المجد.. يومها زهدت في الدنيا، لعلمي أنها وإن طالت قصيرة، وإن عظمت حقيرة، وإن امتلأت فهي فارغة..

قال الضابط مخاطبًا رجاله:

- أيقظوه..

-حينما هوى السوط الأول على عمامته الخضراء هتف أبو المجد:

- حيّ.. قيوم.

وتوالت السياط وهو لا يتزحزح، ولا يكف عن ترديد اسم الله.

- تكلم يا أبو المجد وإلا قتلناك.

- فعلها «النمرود» قبلكم، وزعم أنه يحيي ويميت، لكنه عجز أن يأتي بالشمس من المغرب..

صاح الضابط:

- سأقوم بنفسي لتأديبك.

فتح أبو المجد عينيه مرّة أخرى، وصرخ بثقة:

- الزم مكانك وإلا صعقتك.

اقشعر بدن الضابط، وفتح فمه هلعًا على الرغم منه. همّ بالقيام لكنه لم يستطع، لأول مرة يدرك تفاهة وسفالة ما يفعل، فهو يعلم قبل غيره أنه ليست هناك مؤمراة ولا يحزنون، وأن المسألة لا تخرج عن كونها هوجة عشواء، سرعان ما انطفأت، ولم يكن على قدر من الشجاعة يجعله يصرّح بما فى داخل نفسه، ثم وضع رأسه بين يديه لدقائق، والجميع صامتون، ثم خرج عن صمته قائلاً:

- أشعر بإرهاق، لسوف أستدعى زميلى لاستكمال التحقيق.

وخرج متثاقلاً، وهموم الدنيا فوق رأسه، حين غاب فى الطريق الطويلة، ألقى المخبرون بعصيهم وأسواطهم على الأرض، ثم تسابقوا إلى يدى الشيخ أبو المجد يقبلونهما ويبللانهما بالدموع ويقولون:

- سامحنا يا مولانا.

- المسامح هو الله يا أبنائى.

- كانت أوامر، ولو لم ننفذها لحاكمونا وقطعوا عيشنا.

- يا أبنائى المساكين. . إنهم لا يملكون رزقًا لأحد، ألم تسمعوا الحديث القدسى الذى يقول: أنا أرزق ويُعبد غيرى.

لم يتزحزح أبو المجد عن موقفه، ولم يستجب لإغراءات وألاعيب المحقق الجديد، واحتقر الإغراء، ولما واجهوه بعوض العوضى، فتح أبو المجد عينيه قائلاً:

- كان الله معك يا عوض.

شهق عوض العوضى باكيًا، وارتمى على قدميه يقبلهما وهو يقول فى حزن شديد:

- ضربونى يا سيدنا ضربًا لا يتحمله حمار، فكان أن. .

أكمل له أبو المجد قائلاً:

- قلت ما قلت، أنا أعرف. . أكرهوك على شهادة الزور. . براءة يا عوض. .

- لم أرَ مثل هذا العذاب فى حياتى يا سيدنا.

- إن الله يطهّرك من الذنوب. .

- قلت لهم إنك بعيد عنّا، قريب منّا. . ضربونى، لم يتركونى حتى بصمت على المحضر. .

هبّ الضابط واقفًا، ثم أمسك بخصلات شعر عوض، وجرّه فى عنف وقسوة وهو يقول:

- هل هذه مواجهة أم اعتذار؟

قال عوض فى ضراعة:

- الشيخ أبو المجد سيدنا وتاج رأسنا، وليس فى الربايعة كلها من يستطيع اتهامه بشىء..

- والمحضر الذى بصمت عليه؟؟ ألا تعلم أن إنكارك لن يغير من الموضوع شيئًا؟ سنعيد التحقيق معك مرة أخرى، وسترى هذه المرة ألوانًا أخرى من العذاب..

لم تفلح شتّى المواجهات والقرائن المفتعلة فى انتزاع أى اعتراف من أبو المجد. وعاد إلى محبسه، وبقعة قاتمة مستطيلة تلوّن عمامته الخضراء تلك التى يسمونها فى القرية أحيانًا «الشرف الأخضر».

قال له العسكرى قبل أن يغلق الزنزانة:

- أتريد شيئًا؟

- الوضوء.

تلفّت العسكرى هنا وهنا فى خوف ثم قال:

- أريدك أن تتوضأ فى أقل من دقيقة.

- كله بأمر الله.

قبل أن يغلقوا عليه الباب، أحضروا له طبقًا من الأرز وفوقه مغرفة من الفاصوليا البيضاء، وقطعة صغيرة من اللحم ورغيفًا، صلى ثم أكل، وتمتم:

- الحمد لله الذى رزقنا من غير حول منّا ولا قوة.

●●●

كان أبو المجد متألمًا لما يجرى، لم يخطر على باله شيء من هذا قط قبل ذلك، ولم يتصوّر أن وراء الأسوار وحوشًا بشرية تتصف بهذا القدر من القسوة والحيوانية والمعصية لله، كان يسمع أطرافًا من أحاديث حول معاملة السجناء والمعتقلين السياسيين، لكنه كان يعتبر ذلك أمورًا كالتى تحدث فى دوار العمدة، أو نقطة الشرطة، وما طاف بخياله قط أن يكون للقمع زبانية مجردون من الضمير والدين، وأنهم تمرّسوا على مثل هذه الفنون الوحشية.

وقفز إلى ذهنه سؤال: «ما العمل؟؟» أجاب على نفسه: «مزيد من الطاعة.. مزيد من الصبر.. مزيد من العمل» ثم تساءل: «هذا طيب، لكن أى عمل؟» هنا يكون التفكير.. والتفكير عندئذ سياسة.. أنا أمقت تلك السياسة.. إننى أعرف رجالها أو على الأقل عددًا منهم.. الحقيقة أنهم لا يستحقون أدنى احترام.. لكن- بدون شك- سير الأمور على

هذا النحو مفسدة وبوار . . أيمكن أن يوجد الإنسان الحق وهو مسلوب الإرادة والكرامة؟ شعر أبو المجد بحيرة لم يألفها طول حياته، وكان دائمًا يصلّي ويصوم ويذكر الله، حتى وهو يتصبب عرقًا أثناء عمله في حقوله، كان يسبّح الله ويحمده، وكان يمد يد العون لمن يعرف ومن لا يعرف، ويعقد الصلح بين المتخاصمين، ويبر الفقراء، وحينما أراد أن يستخرج رخصة المباني لبيته الجديد، ماطله رئيس المجلس المحلى، فكان يصبر، ويراجع مرة أخرى دون جدوى، حتى جاءه أحد صحابته وقال له:

- يا أبو المجد، صاحبنا رئيس المجلس لن يعتمد الرخصة إلا إذا دفعت له . .

- رشوة . .

- تستطيع أن تسميها مجرد «أتعاب».

- لكنه واجبه.

- في الرخصة تدفع . . وفي إدخال الماء تدفع . . وعند مد أسلاك الكهرباء تدفع. وكل جزار على شاطئ الترعة يقدم له كيلو لحم أسبوعيًا . . نعم . . وهكذا أتعاب . .

قال يومها أبو المجد في امتعاض:

- الراشى والمرتشى فى النار، وإذا كان هو يريد أن يدخل النار، فأنا عشت حياتى عاملاً من أجل أن أنأى عنها. . فهل من العقل أو الدين أن أضيّع مستقبلى؟؟

- إذن فلن تبنى بيتك الجديد أبداً.

- بل سأبنيه بإذن الله. .

ويعرف أهل القرية أن أبو المجد بنى بيته، وأن رئيس الوحدة المحليّة قدّم شكوى ضده، وأحيل الأمر إلى القضاء «بناء بدون ترخيص»، وذهب أبو المجد إلى القاضى حاملاً كافة الأوراق الثبوتية التى تؤكد حقّه فى الحصول على الرخصة، مما يكشف عن تعنت الإدارة لأسباب لا تغيب عن فطنة المحكمة، ويومها قال رئيس الوحدة لمن حوله: «لن يدخل النور بيت أبو المجد، لأن الأحمال الكهربائية لا تكفى، ولن يشرب قطرة ماء من شبكة مياه الحكومة. . إلا إذا دفع. . ليس عندى فرق بين صالح وطالح. .».

ويوم أن تم البناء أقام أبو المجد مأدبة للفقراء، أطعمهم فيها اللحم والثريد، وعلّق القناديل الغازية، وأقام طلمبة تأتى بالمياه الجوفية النقية، وقال باسمًا: «ربنا يغنينا عن الحكومة وعن المجلس المحلى».

شعر أبو المجد بألم فى رأسه. تحسس عمامته الخضراء فشعر

باللزوجة، خلعها عن رأسه الحليق، وسرعان ما وضع يده على الجرح الذى سببه ضرب العصا . ابتسم فى رضى وقال :

- اخشع . . وتأدب . . وتعلّم، وهل يحدث شىء فى هذا الوجود إلا بأمرك يا رب؟

غسل رأسه بملء كف من الماء ثم أعاد لبس عمامته، وبدأ فى ذكر الله، وخيل إليه أن صوتًا يطن فى داخله :

يا أبا المجد . . الساكت عن الحق شيطان أخرس . .

وفتح عينيه، وطاف ببصره عبر الغرفة الصغيرة خافتة الضوء بدا له كأن السقف ينزاح، وأن السماء قد تكشفت له، وأن القمر والنجوم تبتسم له وتسبح معه، وأن الملائكة تحلّق بأجنحتها البيضاء وترتل أعظم الألحان.

●●●

استدعوه فى اليوم التالى لمواصلة التحقيق، كانوا هذه المرة أخف وطأة، وأقل شراسة . وبدا على المخبرين أنهم غير متحمسين للاشتراك فى إيذائه وتحقيره، إن كابحًا نفسيًا غريبًا يمنعهم من فعل ذلك، سأله الضابط عن الحزب الذى ينتمى إليه فقال :

- حزب الله . .

- هذا حزب متطرّف فى لبنان، وله أنصار هنا، وإيران هى التى ترسم له سياسته . . فكيف تورّط نفسك فى ذلك؟

- ما قصدتُ ذلك . .

ثم تلا قول الله: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) ﴾ [المجادله: ١٩-٢٢] صدق الله العظيم.

قال الضابط:

- لا أفهم.

- تدبّر يا بنىّ.

- من أين أتيت بهذا الكلام؟

- من المصحف.

- أنا لا أعرف التفسير.

- ألم تستشعر المعنى بقلبك؟؟

- لكن هذا الحزب لم يصرّح به قانون الأحزاب فى الدولة.

- قانون الله فوق قانون الأحزاب.

- هذا كلام خطير..

- بل عظيم، وعظمته تنسب إلى من أنزله..

تفصّد جبين الضابط عرقًا، وتجمدت أفكاره، ولم يدر ماذا يقول، والزبانية من حوله ذاهلون، وصرخ أبو المجد فارتعدت فرائصهم، وهمّوا بالخروج لكنهم سمعوه يقول:

- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم أجال بصره فيهم بضع لحظات وهم ساكتون، ثم قال ملوّحًا بذراعه الطويلة الصلبة:

- لقد خشع الحجر. أفلا تخشون يا بشر؟!

أمسك الضابط القلم، وكتب على الورق كلمات ثم قال للمخبرين:

- أخرجوا هذا الرجل من هنا.. لقد قررت الإفراج عنه على مسئوليتى..

قال حضرة الصول :

- لا بد من أخذ رأى المفتّش . .

- أفـرجـوا عنه ، وأنا أتحـمّل المسـئوليـة ، ولن آسف لو وضعونى فى الحجز مكانه . .

رأى أهل الربايعة أبو المجد يصلى الفـجر فى المسجد فلم يصدقـوا أعينهم ، حسـبوه من أهل الخطوة والكرامات ، وأنه جـاء بطريقـة غـيـر طبـيـعـيـة . ولم لا ، أليس من أوليـاء الله الصالحين؟ وأخذوا يلمسون رأسه ووجهه ولحيته ، ويقبّلون يده حبًا وتبركًا .

- ماذا جرى يا مولانا؟

- مثلما يجرى كل يوم .

- وما هى أخبار من أخذوهم معك؟

-الله أعلم بهم ، إنهم وديعة عنده ، فلتدعوا لهم . .

قال رجل باكٍ :

- حدثنا عن الحبيب المصطفى كى تشفى الصدور .

قال أبو المجد :

- تذكّروا حديث أبى ذر حينما قال :

«أوصاني خليلي بألا أنظر إلى من هو فوقي وأن أنظر إلى من دوني.

وأوصاني بحب المساكين والدنوّ منهم.

وأوصاني بأن أصل رحمي وإن أدبرت.

وأوصاني بألا أخشى في الله لومة لائم.

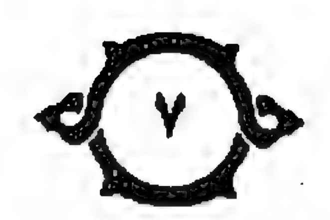
وأن أقول الحق وإن كان مرًا.

وأوصاني بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها كنز من كنوز الجنة».

وارتفعت الأصوات محوقِلَة مكبّرة مهلّلة لبضع دقائق.

ثم خطا الشيخ بعوده الفارع كالنخلة الشامخة.. قاصدًا بيته.. بعد أن أدّى الفرض في بيت الله.

□□□



جاء دور «الراعى كشكل» الذى بدا أسوأ حالاً من الجميع ، فهو عاجز عن التفكير، قد خاصم النوم جفنيه، رأسه يكاد ينفجر من هول الصداع، وآلام البطن تمزق أحشاءه، ولا يستطيع أن يفتح عينيه المحمرتين المتورمتين، وكل أجزاء جسمه تنبض بالألم، فقد عاش معظم سنوات عمره حليفًا «للكيف»، ليتهم يأخذون نصف عمره ويعطونه «ريحة أفيون» أو قرصًا من الأقراص المهدئة، أو «ربع حشيشة»، إن الانقطاع المفاجئ عن «الكيف» يكاد يذهب بالبقية الباقية من عقله، وأحيانًا يشعر أن روحه تخرج من جسده لولا بقية تافهة من إرادة فى الأيام الخوالى، كانوا يأخذونه إلى الحجز فى نقطة الشرطة أو المركز، لكن لم يكن يعدم حيلة فى الحصول على المخدرات، العسكر أنفسهم كانوا يهربون إليه ما يريد، ويتقاضون الثمن أضعافًا مضاعفة، لكنه فى أمن الدولة يجد نفسه سجينًا محاصرًا عاجزًا عن التصرف، إنه لا ينشغل الآن

بأمر السياسة، ولا يفكر فى المظاهرة، ولا فى القضية التى هو بصددها، والتى لم تخطر له على بال قط، حتى أثناء هيمانه فى دنيا المخدرات عند التعاطى، فالمدمن أنانى بطبعه، ولا يهمه زوجة أو ابن أو وطن أو قيمة من القيم، أخذ يدق باب الغرفة فى جنون، طالبًا الطبيب، لكن العسكر أنبوه وضربوه، كان كمن فقد الإحساس لا يشعر بآلام الضرب، بليدًا لا يعى معنى الاهانة، صفيقًا لا يكترث للتقريع.

أخذوه إلى التحقيق، قال له الضابط:

- حدثنا عما جرى.

- كل ما أريده قرصين.. قرصين فقط.. وسأعترف بكل ما تريد.

- تكلم أولاً.

- كيف؟؟ وهل تمشى السيارة بدون بنزين.

قهقه الضابط قائلاً:

- سوبر أم عادى؟

- أى شىء يا بك وإلا احترق الموتور.

التفت الضابط إلى المخبر قائلاً:

- هات قرصين زفتًا وكوبًا من الشاى.

- قهوة يا سعادة البك. ابتلع الراعى القرصين بدون ماء، ثم أخذ يرشف فنجان القهوة، وبعد قليل قال:

- لقد عرفت طريقى من قديم.

- أى طريق يا راعى؟

- أن أكون مع الحكومة بالحق وبالباطل. أنا مواطن مثالى يا بك.. تستطيع أن تقول أن لا رأى لى شخصيًا فى مثل تلك الأمور، الرأى رأى الحكومة.. وعلينا السمع والطاعة.. لقد تعلمنا أن نطيع أولى الأمر.

قال الضابط فى دهاء:

- وإذا حادت الحكومة عن الشرع؟؟

هز الراعى كشكل كتفيه وقال:

- هى حرة.

- وإذا ظلمناك.

- الحكومة دائمًا على حق.

- يا رجل قل كلامًا غير هذا، ألا تحقد حتى ولو بقلبك؟؟

- ليس لى قلب.

- معقول؟

- اسأل أهل الربايعة . . صحيح أنا «صاحب مزاج» لكنى في منتهى العقل والرزانة .

فاجأه الضابط بقوله :

- و ما رأيك فى الشيخ محمد حسب الله؟

- مغرور .

- لماذا؟

- يظن أنه يستطيع إصلاح الكون .

- ولم لا؟

- الكون خلقه الله ، وهو المتصرف فيه .

- لكنه يدعو الناس إلى الحكم بالشريعة .

- إذا حدث فسوف يجلدنى ، وقد يرجمنى .

- وهو يجمع الشباب من حوله ويحرضهم .

- أدبوهم . . وأدبوا أهليهم . . إنهم طائشون لا خبرة لهم بأمور الحياة .

- وأبو المجد شاهين .

- مجذوب .

- لكنه داهية ، ويفكر بعمق .

- يعيش فى الأوهام والأحلام. . مثلنا.

- ماذا تعنى؟

- أنا كنت حشاشًا يا بك. . وكنت أقول الكثير وأنا مسطول. . لكن الحمد لله. لقد تاب الله علىَّ. .

قهقه الضابط قائلاً:

- واضح جدًا.

وصمت الضابط برهة، ثم قال:

- لكن شريط «الفيديو» الذى التقطناه للمظاهرة يظهرك وأنت تهتف. . وتلوح بيديك فى حماس. . وترقص.

ابتسم الراعى كشكل وقال:

- يا بك. . اسمعنى، هل المسطول يدرك ماذا يفعل؟ القانون يعفى شارب الخمر من المسئولية وإن كان قاتلاً، ولا يحاسبه إلا على جريمة السكر.

- يا راعى. . البعض يزعم أن مشكلة المخدرات سببها الفساد والظلم والأزمة الاقتصادية.

قال الراعى كشكل على الفور:

- المخدرات موجودة من مئات السنين. . قبل الظلم، وأثناء العدل، ويقبل عليها الفقراء والأغنياء.

- ما هى العلاقة بين «براعم» وحسب الله؟

- عداء.

- لماذا؟.

- لأنه يحرض الناس على سرقة العنب إذا لم يخرجوا زكاة محصوله.. وقد حدثت مشكلة يعرفها العمدة.

- ظننا أن «براعم» قد تقوم بتمويل التنظيم.

- أى تنظيم؟

- التنظيم المتطرف الذى يرأسه الشيخ محمد حسب الله، ويخطط فيه لقلب نظام الحكم، وتدبير الاغتيالات السياسية.. وطبعًا أنت تعرف هذا التنظيم والشباب المشاركين فيه، وأنه يعقد اجتماعات دورية برئاسة حسب الله، وأن الأعضاء ينتشرون بين الناس، وفى المساجد، والمدارس ويحرضونهم على التمرد.. ألا تشهد بذلك؟

قال الراعى فى شىء من الحيرة:

- لا أعرف غير موضوع زكاة العنب.

غمز الضابط بإحدى عينيه، فانهالت العصى والسياط فجأة على رأس الراعى وجسده، فسقط على الأرض وهو يستغيث، ثم فرد كفيه على رأسه ليحميه من الإصابات، ثم

أشار الضابط بأصبعه فتوقف الضرب، كانت هناك كدمات وخطوط دامية على وجه الراعى كشكل وعنقه ورأسه، قال له الضابط:

- لماذا تبرم شاربك؟

قال الراعى والدموع فى عينيه، وابتسامة بلهاء على ثغره:

- ليقف عليه الصقر.

وضحك الراعى، لكن الضابط لم يضحك.

- يبدو أنك لا تريد أن تخرج من هنا يا راعى.

زحف على يديه وركبتيه، وانكب على حذاء الضابط يقبله، وهو يقول:

- أريد أن أخرج بأى ثمن.

- فلتعترف على حسب الله.

- وأخرج؟

- نعم وتخرج.

- أعترف يا بك.

- بمحض إرادتك.

- هذا واجب وطنى.

- ودون إكراه.

- طبعًا.. حسب الله شيطان يلبس عمامة.

- والشباب؟؟

- أبالسة، يعضون اليد التى تمتد إليهم بالإحسان.. الحكومة أمنا الكبيرة.. وعقوق الوالدين كبيرة من الكبائر.

- أنت مواطن صالح يا راعى.

فاضت نفسه بالفرح، وشعر بالانتعاش وتزايل الألم وهتف بأعلى صوته بطريقة جنونية:

- عاش العدل.. عاشت الحكومة.

- وسنفرج عنك قريبًا، ولن نحيلك إلى معتقل المخدرات.. أتدرى لماذا؟

- لأنى مواطن صالح.

- دع هذه.

- لماذا إذن؟؟

- ستكون مرشدًا لنا، وسندربك على العمل، ستخبرنا عن كل صغيرة وكبيرة فى البلد. ويوم أن تلعب بذيلك يا ويلك.. يجب أن تكون أمينًا، ولو رأيت الغدر فى عيون أحد أو فى

كـلامـه . . حـتى ولـو كـان أخـاك فلتـبلغنا على الفـور . . وسنعطيك مرتبًا شهريًا .

- هذا كثير .

- وسنغـمض أعيننا عن مـجالس الأنس التى تـسهر فيها كل ليلة .

- ونامت العيون .

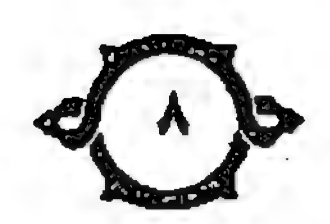
- وبقيت عينا الراعى مفتوحتين .

- إنه لا يفكر عادة فيما يسمى بالضمير أو الوفاء .

- لكن هناك «منغصات» من نوع غامض .

تذكـر كلمـات «أم كلثوم» : «أتقلب على جـمر النـار» تلك الأغنيـة التى طالما سـمـعهـا وهو مـسطول ، وكـان يميل طربًا مع ألحانها . . لكن الآن يشعر جمر النار حقيقة .

□□□



ما كان يحرى فى الحبس، لم يعد سرًا، فأهل الربايعة جميعًا أصبحوا على علم تام بتعرض مواطنيهم للإيذاء الشديد، وكان التضخيم والتهويل فى موضوع الجنازة وما حدث فيه من رود أفعال مقصودًا لذاته، ويبدو أن تلك سياسة معتمدة، وقد أفشى ذلك أبو المجد شاهين لخاصته، كما أن الأنباء تسربت خارج الجهة الأمنية التى احتجز فيها المقبوض عليهم، ونشط أهل القرية فى تقديم عرائض والتماسات للقيادات العليا فى البلد، وكلها كانت غفلاً من الإمضاء.

رأت براعم أن ما قامت به توكيل لعدد من المحامين لا يكفى، ثم إنها ليست من أنصار المظاهرات أو حتى كتابة العرائض، كانت تشعر بأن المقبوض عليهم مظلومون، ولا يستحقون ما يجرى عليهم من عقاب، وكانت تفكر بعمق فى الأمر برغم انشغالها بجمع وبيع محصول العنب،

وقررت فى البداية أن تقوم بتوزيع إعانات على الأسر التى اعتقل بعض أفرادها، وقالت لمن تثق فيهم من رجالها:

- لا يصح أن نقف متفرجين.

قال أحدهم وكأنه يتحدث باسم الموجودين:

- وماذا بأيدينا أن نفعل؟

- أى شىء يا عباس.

- إن سياستنا هى ألا نصطدم بالإدارة، وأنت صاحبة هذه السياسة من زمن قديم.

عضت على شفتها السفلى فى حيرة وقالت:

- إن المواقف تتغير بتغير الأحوال.

- قد يكون الدخول فى ذلك سهلاً، ولكن الخروج سيكون شديد الصعوبة وأنت تعرفين.

- عمومًا يا عباس الأمر ليس سياسة.

- وماذا يكون؟

- نحن لا نؤيد حزبًا، أو نهاجم آخر، ولكن الدفاع عن المظلومين وحمايتهم مروءة، وإلا فما معنى وجودنا وأموالنا وتأثيرنا إذا لم نقف إلى جوار أهلينا، وندفع عنهم الظلم والهوان؟

قال عباس السمنودى :

- نستطيع أن نحطم مركز الشرطة على رءوس من فيه .

- سنجر مزيداً من البلاء علينا وعلى أهل البلد يا عباس .

- نخرج بالبلد عن بكرة أبيها ونعسكر حول بيت المحافظ .

- قد يضربوننا بالرصاص . . وربما بالطائرات . . هل نسيت أن المظاهرات جريمة .

- نبعث إليهم بأكبر المحامين فى البلد .

- فعلنا ذلك سراً .

- لم يبقَ شىء أقترحه سوى أن نغلق أبواب قريتنا ونعلن العصيان المدنى كما يقولون .

الواقع أن الأمر محير ، والحلول صعبة ، والتفكير مقيد ، والقانون معطل ، تمتمت براعم :

- كل شىء فاسد . . فاسد .

- فماذا نفعل ؟

- قالت براعم :

- والبلد بلا عمدة ، ضابط النقطة شاب صغير لا خبرة له . .

ثم هتفت فى شىء من الضيق :

- دعونى أفكر .

قبل أن يخرج عباس هو ومن معه قال :

- نسيت أن أخبرك أن «مسعدة» أم الشيخ محمد حسب الله ذهبت لزيارة ابنها فطردوها . . بل وضربوها . . وها هى الآن تبكى وتصيح ، وتضع الطين على رأسها فى بيتها . .

نظرت فى غضب وقالت :

- ويضربون النساء أيضًا؟

●●●

قامت براعم بزيارة «مسعدة» وقدمت لها العون والمواساة ، خاصة بعد أن علمت أن مرتب الشيخ محمد حسب الله موقوف ، ومرت على بيت الراعى كشكل ، ولم تنسَ إخوة عوض العوضى الصغار إذ بعثت إليهم بالطعام الحلال ، وكستهم ، فقد كانوا أيتامًا لا أب لهم ولا أم .

فى اليوم التالى قصدت ديوان المحافظة . كبار الموظفين فى مكتب المحافظة يعرفونها جيدًا ، فهى تغدق عليهم المال ، وتبعث إليهم كل عام أقفاص العنب كهدية سنوية و«كل سنة وأنت طيبة يا ست الكل ، وربنا يجعله عامر ، ونحن فى

خدمتك دائمًا» ، كما أنهم يعرفون أنها سباقة للتبرع بالمال للمحافظة عندما يدعو الداعى إلى ذلك ، وكثيرًا ما يدعو ، كانت تدفع وهى تعلم أن نصف ما تدفعه على الأقل لا يصل إلى الهدف المنشود ، واستقبلها المحافظ بترحاب كصديقة قديمة ، وتدارس معها قضية الرباعية من شتى أطرافها ، وكشفت له عن الكثير من الملابسات والمخالفات الخطيرة ، وكان المحافظ يستمع إليها وهو يبدى دهشته واشمئزازه لما يجرى ، ثم قطعت الحديث وقدمت له شيكًا باسمه بمبلغ ثلاثين ألف جنيه تبرعًا للمشاريع الخيرية التى تقوم المحافظة بإنشائها ، وتناول المحافظ الشيك بالامتنان الواجب ، وأثنى على وطنيتها وشهامتها ونبلها ، بل وجمالها ، ثم اجتاحته موجة من الحماس وقال : «سأكلم وزير الداخلية بنفسى» .

وقبل أن يهدأ انفعاله ، تناول التليفون وأدار القرص :

– أهلاً سعادة الباشا .

– . . . .

– نعم يا باشا . . موضوع الربايعة .

– . . . .

– لا يا باشا ، الأمن مستتب . . والكثيرون أرسلوا برقيات استنكار لما جرى ، وأكدوا التزامهم بتأييد الحكومة . .

- . . . .

- أبدًا يا باشا . . نظرة عطف منك .

- . . . .

- نحن معكم يا باشا . . نعم . . نعم . . الضرب بيد من حديد . . لكنهم سذج وبسطاء ، ولا يعرفون ما يدبر فى الخفاء . . لكننا نطمع فى كرم معاليك . . والإفراج عنهم .

- . . . .

- أعرف أنها سياسة عليا ، لا يصح التدخل فيها ، ولكننى أضمنهم .

- . . . .

- ومتى ينتهى التحقيق؟؟

- . . . .

- أيام؟؟ لا بأس . . ربنا يطول لنا فى عمرك .

- ووضع السماعة .

- كان جبينه ينضح بالعرق .

وبدا يلهث كأنه خارج من سباق .

وضع يده على صدره وقال :

- أنا يا ابنتى مريض بالقلب. . والانفعال يؤذينى. . لقد قدمت استقالتى مرات، ولكنهم يرفضون.

كانت براعم تنظر إليه صامتة، وهو يجفف عرقه، ثم يتناول فنجان القهوة بيد مرتعشة، ويرتشف منه بعصبية، قالت:

- سلامتك يا باشا.

أخبرها أن وزير الداخلية قد وعده خيراً، وأنه سوف يتم الإفراج عمن لم تثبت إدانته بعد انتهاء التحقيق الذى لن يستغرق سوى أيام قليلة، وأنه سوف يتابع التحقيق بنفسه، حتى لايظلم أحد، فهم أبناء محافظته، ولن يفرط فى حقوق أحد منهم أو كرامته، فهو الآخر رجل قانون مارس القضاء لسنوات طويلة.

- أى كرامة، وأى حقوق يا باشا؟؟ إنهم يضربونهم صباح مساء دون رحمة.

- شائعات يا ابنتى.

- أنا متأكدة مائة فى المائة.

تنحنح، ثم عاد إلى تجفيف عرقه وقال:

- رب الأسرة يؤدب أبناءه أحيانًا من أجل مصلحتهم.

قالت براعم وقد أدركت أنها قد أخذت من وقت الرجل

أكثر مما يجب :

- الأمر أمانة بين يديك .

قال وهو يصافحها مودعًا :

- شكرًا على الشيك ، وتأكدى أنهم سيخرجون فى أقرب فرصة وسوف أقابل وزير الداخلية بنفسى .

أثناء عودتها تذكرت براعم أن هناك إحدى نائبات مجلس الشعب فى دائرة غير دائرتها واصلة إلى أبعد مدى ، ولها علاقة وطيدة بالكبار ، ويروون عنها أنها تدخل الطالب كلية الشرطة أو الكلية الحربية نظير عشرة الآف جنيه ، وأنها استطاعت بنفوذها إنقاذ عدد من تجار المخدرات الذين قُبض عليهم متلبسين ، لا ببراعتها فى الدفاع عنهم ، ولكن بأساليب وحيل لا تمت إلى ذلك بصلة ، وأنها استطاعت أن تنقذ فتاة عابثة من المحاكمة بعد أن دهست بسيارتها شابين بريئين ماتا على الفور ، فهربت الفتاة واستطاعت النائبة المحامية أن تسجل فى محضر الشرطة بتاريخ سابق سرقة السيارة ، وأن المتهمة كانت خارج المدينة فى يوم وقوع الحادث . . عشرات القصص تُروى عن هذه النائبة ، التى امتد نفوذها خارج الدائرة والمحافظة كلها .

فلماذا لا تجرب براعم حظها معها؟

ذهبت إلى إحدى الفنادق فى عاصمة الإقليم كى تستريح قليلاً وتتناول غداءها، ثم كلمت المحامية فى التليفون لحجز موعد، وكان اللقاء فى المساء، وكان المكتب غاصًا بالمراجعين وطلاب الحاجات، ورنين التليفون لا يكف، وفارسة مجلس الشعب تخرج وتدخل كأنها فى حفل لعرض الأزياء، والناس يقفون تحية لها، ويزاحمونها بالسلام وعبارات الثناء والمديح، ويقول أحد المراجعين: «امرأة ولا ألف رجل»، ويرد آخر: «أعوص المشاكل تحلها فى دقائق.. وبالتليفون».

وثالث يردد: «أكبر رأس ينحنى لها احترامًا».

عندما التقت بها براعم على انفراد قالت لها:

– سمعت عنك الكثير يا ملكة العنب..

ثم ضحكت قائلة:

– أنت جميلة جدًا يا براعم!! حتى النساء يصعقن أمام جمالك الفاتن!! لست أدرى لماذا لم تتزوجى حتى الآن؟ اسمك كالطبل فى المحافظة.

وقالت النائبة المحترمة سعاد الدباح:

– عندى فكرة كاملة عن مظاهرة الربايعة.. كان المفروض أن تقصدينى منذ البداية.. الطناحى لن يستطيع أن يفعل لكم

شيئًا، والمحامون الموكلون لا خبرة لديهم بالقضايا السياسية . . صدقيني . . لقد فكرت -بل بدأت فعلاً- فى مساعدة المعتقلين من أهل بلدك . . وأنا على صلة وثيقة بأجهزة ونيابة الأمن . . مساكين أبناء الربايعة . . إنهم يتعرضون لمحنة قاسية توجع قلبى . . حاولت الدفاع عنهم فى مجلس الشعب مخالفة بذلك إرادة الحزب الذى أنتمى إليه . . أنا مع الحق دائمًا ولو كان من أجل أعدائى السياسيين الذين يلفقون لى التهم، وينشرون حولى الأقاويل . . المخلصون الناجحون يتعرضون لمثل هذا دائمًا . . باختصار قضية الربايعة قضية سياسية بالدرجة الأولى . . والسفير العراقى بالقاهرة احتج على ما يجرى، والحكومة متضايقة، وتريد أن ترد اعتبارها، وترضى العراق . . فنحن والعراق أعضاء فى مجلس التعاون العربى . . عمومًا . . القضية غير عادية وتحتاج إلى جهد غير عادى ومصاريف وإجراءات وتحركات . . بصراحة أحتاج خمسة عشر ألف جنيه .

- ويفرجون عنهم؟

- بالتأكيد . .

- وبسرعة؟؟

- إن كلمتى واحدة . . نحن لا نلعب .

قرأت الأستاذة سعاد الدباح الشيك (كان أبوها أكبر جزار فى المدينة، ويحسن التفاهم بالسكين)، ثم ابتسمت فى ثقة (وكانت جميلة برغم بدانتها)، ثم قالت:

- الليلة سأكون مع المتهمين، وسأزف لك البشرى فى التليفون.

عادت براعم إلى القرية قبيل منتصف الليل، كانت تجلس فى مقعد سيارتها الخلفى صامتة، لم ترد على تساؤلات السائق: هل تريدين شراء شىء من المدينة؟ هل تودين شرب «بيبسى كولا» مثلجة؟ هل تشعرين بشىء؟ لم يستطع أن يجرها للكلام بأى شكل من الأشكال، الطريق الضيق المرصوف يمتد تحت أسداف الظلام الحالك، والأشجار على الجانبين مثقلة بتيجانها المعتمة، وأبنية القرى فى الطريق تبدو كأنها هى الأخرى نائمة كالبهائم الرابضة أمامها، والكلاب تنبح أحيانًا بأصوات مبحوحة، وكأنها تعبت من طول النباح صباح مساء، وومضات شاحبة من النور تتلصص على سطح مياه الترع الضيقة الشحيحة.. الأحداث تتوارد على ذهن براعم طيبة القلب، كادت تشعر بالغثيان حينما تذكرت أنهم ضربوا أبو المجد شاهين ولم يحترموا صلاحه وسنه، ثم كزت على أسنانها وأغمضت عينيها بشدة حينما تصورت أنهم يضربون الشيخ محمد حسب الله بالسياط «يا ضيعة العلم.. والشرف.. والكرامة» أمه

مسعدة تبكى لا تجف لها دمعة . . حتى جاموستها الوفية عافت الزاد والماء وإدرار اللبن . . تظل فى حظيرتها تنفخ وتنطح فى الهواء، وتدب بأرجلها فى الأرض . . ألم تقل لها مسعدة ذلك بالأمس؟؟ حتى عوض العوضى الحرامى سيئ السمعة تشعر نحوه بالعطف، وتأسف لما جرى له من ضرب وتعنيف فى دوار العمدة قبل ذلك . . تمتمت: «إن الدولة التى يهان فيها أمثال حسب الله وأبو المجد تخرج عن طاعة الله»، من أجل جنازة قامت الدنيا وقعدت، ولما مات «السلامونى» -برغم سيرته السيئة- لم تقم السلطة بما يجب بحثًا عن قتلته، إن هناك خللاً ما عميق الجذور فى دنيا الناس، وبراعم قد حارت فى أصول وفروع ذلك الخلل، وكيف يمكن التصدى له؟ لقد وظفت مالها اليوم من أجل إطلاق سراح المأسورين، وهى ليست نادمة على المبلغ الكبير الذى تكبدته دون أن تحقق لنفسها مصلحة ذاتية مباشرة . . بل إنها تشعر بالسعادة، لم تجد السلاح المناسب الذى تخوض به معركتها ضد الشر سوى سلاح المال والعلاقات وسياسة الأمور بلباقة .

بدون مناسبة تذكرت كلمات كتبها أديب ناشئ من أهل القرية ولم يجرؤ على التوقيع باسمه عليها :

«أيتها الجالسة على عرش قلبى

إن ملائكة الحب ترف حول تاجك كالرياحين المقدسة

فلتبقى على عرشك الذهبى إلى الأبد

إن شهريار هو الذى يقص أساطير الحب هذه المرة . .

لاتتركى عرشك فى قلبى العاشق

ذلك هو الخلود

الحلم الذى بدونه لا يصبح للوجود معنى

آه يا ملكة العنب

يا سر الجمال والحب والفضيلة . . والخلود . . ».

ابتسمت لأول مرة من قلبها هذا اليوم .

عندما وصلت القرية ، وجدت عدداً غفيراً منهم ما زال ساهراً . .

قال عباس السمنودى :

- شغلت الناس بغيابك . .

- لم أعد صغيرة . .

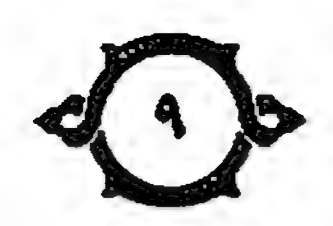
- إنهم يحبونك ويقلقون عليك كأعز أبنائهم . .

قالت وهى تهرول نحو بيتها :

- لهذا غبت عنهم .

وأدرك عباس السمنودى ما ترمى إليه .

□□□



الشيخ محمد حسب الله رجل ذو خبرة، ولد ونشأ فى ظل الثورة، وسمع وقرأ الكثير عما يحدث فى البلاد، وهو كثير الاطلاع فى الصحف والمجلات، ويحب أن يستمع إلى صوت أمريكا ولندن وإسرائيل وصوت الجماهير فى بغداد وصوت العرب وإذاعة العالم الإسلامى فى السعودية، كما يستمع إلى الإذاعة العربية فى إيران، ومهتم جداً بالمشكلة الاقتصادية فى مصر وقضايا الاستثمار والقطاع العام وجرائم أمن الدولة، والسياسة التعليمية، ويتابع ما يجرى فى الانتخابات وفى مجلس الشعب والشورى والنقابات المهنية، أحيانًا يطلق عليه أصدقاؤه اسم «الموسوعة» لكثرة معلوماته وتنوعها، ثم إن له رأيًا حراً يستخلصه لنفسه بجهوده الخاصة، وقد يعلن ذلك الرأى أو يحجبه، حسب الظروف، لأن الناس فى هذا الزمان كثيراً ما تسىء الظن، وتفسير الأمور تفسيراً يتفق مع أهوائهم وميولهم، وليس على أساس النظرة العلمية المحايدة.

ولقد أرجأوا التحقيق مع محمد حسب الله قصدًا، ورأوا أنه سيكون آخر من يحقق معه، ولهذا ظل ينتظر فى قلق، ويزداد قلقه كلما سمع الصراخ والاستغاثة، فهو يعلم أن الأمر لا يستحق هذا العناء كله، وليست هناك دوافع خبيثة وراء ما جرى فى «الربايعة» التى لا تفكر إلا فى زروعها ومياهها وتوفير أقواتها، وتعليم أبنائها، والبحث عن فرص للعمل خارج مصر خاصة دول الخليج وليبيا والأردن، وآمال الناس يتركز معظمها فى بناء منزل، أو زواج ابن أو ابنة، أو عمل مشروع تجارى أو صناعى صغير يعود بدخل معقول بعد أن أصبحت الزراعة لا تفى بالأرزاق، كما أصبحت الرقعة الزراعية صغيرة بالنسبة لعدد السكان.. الربايعة آمالها متواضعة، وليس بين أبنائها من كبار الشخصيات فى الدولة إلا اثنان أو ثلاثة، حتى المليونير الوحيد من أبناء القرية يعيش فى الإسكندرية مشغولاً بأعبائه وسفرياته إلى أوربا وأمريكا، ولا يعطف إلا على بضعة نفر من فقراء عائلته، لكنه لم يقم بإنشاء مشروع واحد فى بلده التى ولد فيها وتردد على «كتاتيبها» ومدارسها الأولية طفلاً.. وهكذا كان الشيخ محمد حسب الله يرى أن الربايعة ليست أبدًا تلك القرية الخطيرة التى تحسب لها الحكومة ألف حساب، صحيح أن فيها بعض الطلبة الملتحين المنادين «بالحل الإسلامى» لكن لم يثبت أن أحدًا منهم

كان عضواً فى تنظيم إرهابى، أو اشترك فى عمل من أعمال العنف، اللهم إلا ذلك الطالب فى كلية الطب منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا . . إنه تاريخ تذكره القرية جيداً، فقد فُصل من كليته، وحُكم عليه بالسجن عشر سنوات، لكنه خرج بعد ذلك قبل أن يستكمل مدة العقوبة، وأتم دراسته وسافر للعمل بالخارج منذ ثلاثة وعشرين عامًا، حتى كاد ينساه الناس لولا زيارته السنوية الخاطفة وكتاباته الأدبية المؤثرة، وبعض أعمال الخير التى يقوم بها أحيانًا.

فكيف تتحول الربايعة فجأة إلى قرية ثائرة تحاصرها القوات، ويمنع فيها التجول، اللهم إلا إذا كان الذين يفعلون ذلك إنما يرتعون فى دنيا من الجهل والحماقة وسوء التقدير؟؟ ووصل الشيخ محمد فى نهاية تفكيره إلى أن الأمر لا يخرج عن كونه مسرحية عبثية لا يقصد منها سوى إرهاب الناس وتخويفهم فى ضوء المثل السائر: «اضرب المربوط يخاف السايب»، واستعان محمد على قضاء وقته الممل القلق الطويل بقراءة القرآن، فقد كان يشعر أنه يؤنسه، ويخفف عنه آلامه النفسية الجامحة، ويضرب له الأمثال الكثيرة التى تنضر قلبه وروحه بالإيمان. وذات مساء قالوا له:

- قم.

فقام وهو يرمقهم بعينين يقظتين تلتمعان بالترقب، دفعه العسكرى فى عنف واحتقار متعمدين، فابتسم فى مرارة وحث الخطى.

- أسرع يا شيخ عفريت.

التفت إلى العسكرى فى وداعة وقال:

- أنا الشيخ محمد حسب الله.. ذلك اسمى.

وقف أمام الضابط المحقق الذى كان يضع ساقًا على ساق، وينفث دخان سيجارته، ويرمقه بنظرات حادة متحدية، خفض الشيخ حسب الله رأسه كعادته وهو يذكر الله ويطلب منه العون، وكأنه يقول: «علمك بحالى يغنى عن سؤالى» لأن قلبه كانت دقاته تتسارع، ويستشعر قدراً من الخوف اللاإرادى الذى لا تجدى معه مقاومة.

قال الضابط:

- القضية جاهزة؟

- أية قضية؟

أخذ الضابط ينظر فى أوراق أمامه، ويعد على أصابعه قائلاً:

أولاً: تشكيل تنظيم سرى برئاستك.

ثانيًا: قيادة مظاهرة مسلحة ضد الحكومة.

ثالثًا: محاولة لقلب نظام الحكم.

رابعًا: الاتصال بجهات أجنبية.

خامسًا. . .

قاطعة محمد قائلاً:

- يكفى يا بك واحدة منها لإعدامى.

- أتسخر منى يا جربوع؟

- أنا معلم. .

ضحك الضابط ساخرًا، وشد جذعه، ورفع رأسه إلى أعلى وقال:

- وعندما يخطئ التلميذ يا. . معلم، ماذا تفعل به؟ ألا تضربه علقة على رجليه.

ولم يدرِ الشيخ محمد ماذا حدث، لقد وجد نفسه طريحًا على الأرض، ورجلاه فى فلقة، واثنان من العسكر يتناوبان ضربه على قدميه بالخيزران، لم يستغث أو يبكِ، بل أغمض عينيه، وأغلق فمه، وكان قلبه يخفق بذكر الله، وأصر على عدم فتح فمه أثناء الضرب حتى ولو مات. . وبدا الموت فى هذه اللحظات أمرًا من أمور الحياة العادية لا يؤبه له، والحقيقة

المؤكدة أنه كان يشعر بالآلام المبرحة، لكنها أخذت تخفت رويدًا رويدًا، حتى ظن أنهم توقفوا عن الضرب، لكن ذلك لم يكن صحيحًا حسبما تصور فالأيدى تعلو وتنزل بالخيزرانة، ظن أن قدميه قد أصابهما الشلل، وماذا يفعل المرء إذا انقطعت أسبابه بالناس ولم يعد له عون إلا الله؟؟

عندما خلعوا عنه الفلقة طلبوا منه أن يجرى بالغرفة بصورة دائرية، وذلك حتى لا تتورم قدماه.

- كيف أجرى وأنا أعالج من مرض فى ركبتى؟

جروه وأخذوا يدفعونه فى غلظة كى يجرى، إذ لا بد أن يفعل ذلك حتى ولو كان مقطوع القدمين.. حاول أن يجرى.. انكفأ ثم قام وحاول مرة أخرى.. «يا سبحان الله!! إننى أستطيع الجرى الآن وكأن ليس فى ركبتى أى مرض».. وظل يجرى والعرق يتصبب منه.. فرح فرحًا غامرًا، وضحك فى هذا الوضع المحزن، لأن الضرب حقق ما لم يحققه علاج الأطباء، والشافى هو الله.

أطلعوه على شهادة عوض العوضى والراعى كشكل فى حقه، فقال ببساطة:

- لا يمكن أن يقولا شيئًا كهذا.

- لماذا يا حسب الله.

- لأنه لم يحدث، ولا صلة لى بهما على الإطلاق . .

أروه البصمات والتوقيع على المحضر، فعلق:

- الأقوال التى تنتزع بالسياط، وتحت القهر والضغط لا يؤبه لها.

- إنهم تطوعوا بالشهادة يا حسب الله.

- كنت أسمع عويلهم . . وصراخ عوض العوضى أميزه بسهولة . .

صرخ الضابط:

- أنت قليل الأدب.

- سامحك الله . . كيف وأنا أعلّم تلامذتى الأدب؟

قذفه الضابط بطفاية السجائر وقال:

- هل كنت تتصور أن يتحرك الأمن المركزى، ويحاصر القرية، ويمنع التجول، ويعتقل الناس دون مبرر.

هز الشيخ حسب الله رأسه، وهو ينفض عن وجهه غبار السجائر المحترقة . .

- مبرر واه.

- إنها مظاهرة مسلحة.

- بل جنازة لتشييع ابن عمتى .

- أنت كنت تهتف .

- لا أحب الهتاف .

- وتحرض على الانحراف والعنف .

- من قال ذلك؟

- تاريخك الأسود .

- أى تاريخ .

- هل نسيت أنك حرضت الفقراء على الأغنياء الذين يزرعون العنب، فى قلب المسجد، ونتج عن ذلك اضطرابات فى الأمن، وسرقات، ومصادمات، وجريمة قتل السلامونى؟؟ أقسم أنكم وراء قتل «السلامونى» حتى توقعوا القرية فى فتن واضطرابات، وبالتالى تربكون استقرار البلد وازدهارها . . ألم تعتب عليك «براعم»، ملكة العنب- وتقدمت بشكوى ضدك لحضرة العمدة؟؟

قال محمد حسب الله بصوت خفيض :

- لم أقل بغير ما قاله الإمام أبو حنيفة النعمان وغيره من الأئمة . .

- بعض الأئمة اشترط فى الثمار أن تكون مما يمكن

تخزينه . . أى لا زكاة فى العنب إلا بعد أن يصير زبيبًا ، وليست هناك زكاة على الموز مثلاً بالمرة . . فلماذا لا تترك الناس وشأنهم؟

- الفتوى من شأنى أنا وليست من شأنك .

- تأدب يا ولد .

ابتسم الشيخ حسب الله وقال :

- لم ينكر أحد الزكاة بالنسبة للعنب ، وإن قال بعضهم يمكن إخراج الزكاة من الثمن المقدر له كزكاة مال عادية . . لكن الغالبية . .

- كفى . . إن ما يهمنى هو أنك لم تحسن أسلوب مخاطبة الناس ، وأثرت الفتنة والبلبلة بينهم . . ثم قدت المظاهرة ، وكونت تنظيمًا من الشباب المخدوعين وغررت بهم .

وقدم أحد العسكر ، وهمس فى أذن الضابط بكلمات ، فهب الضابط واقفًا وقال :

- أدخلها على الفور .

دخلت كالزهرة النضرة الندية ، عليها هيبة النقاء والجمال ، وفى عينيها وداعة حانية ، وسحر فواح ، قصدت الشيخ محمد حسب الله وألقت عليه السلام ، ثم التفتت إلى الضابط المرتبك ، وقالت فى أول تعليق لها :

- كيف تتركون هذا العالم الجليل واقفًا؟؟

- هذا تحقيق يا هانم وليس ضيافة، هنا نعامل الجميع سواء..

- وأنا لن أجلس إلا إذا جلس.

كانت براعم مدعوة للشهادة فى موضوع زكاة العنب وما ترتب عليه من أحداث، كما كانت مطلوبة لأداء شهادتها أيضًا بالنسبة للمظاهرة، ويبدو أن ذلك أمر قد تم الترتيب له بينها وبين الأستاذة سعاد الدباح ورئيس أمن الدولة، ونفت براعم بشدة أن تكون قد قدمت شكوى للعمدة فى حق الشيخ حسب الله، وإلا فأين هذه الشكوى، ولم تتحرك إلا بحثًا عن لصوص العنب الذين يظهرون فى كل موسم، وذلك للحد من نشاطهم، وأثنت ثناء عطرًا على أخلاق الشيخ محمد وأسلوبه فى توعية الناس ووعظهم، وأكدت أنه ابن القرية البار المخلص الذى يعمل على استقرار الأمور فيها، وتلاحم أهلها، وإذا كان له بعض النقد فإن ذلك مطلوب من أجل مصلحة الحكومة ومصلحة الشعب أيضًا، وما روى عنه من انتقاد للمجلس المحلى صحيح، وواجب الحكومة ألا تعاقب أو تطارد المنتقدين، بل تبحث عن الخلل وتصلحه وتتحرى عن المستغلين والمفسدين وتتخلص منهم وإلا ساد التذمر والغضب والأنانية والفساد أنحاء البلاد.

ابتسم الضابط وقال:

- لو لم يكن لديك حصانة لحبستك معهم.

قالت ساخرة:

- يمكن أن تفعلها.

- أروح فى داهية ياست براعم.. أنت من الواصلين.. ربنا يجعلنا من بركاتك.

ثم حضر العمدة عبد الشافى وهدان، بعد أن كلفه وزير الداخلية بالاستمرار فى العمل حتى تنتهى الأزمة، وكانت شهادته فى صالح المتهمين، كما أثنى ثناء عطراً على الشيخ محمد حسب الله، واستنكر كل الشبهات الملصقة به، وأضاف:

- كيف تقبلون شهادة حشاش مثل الراعى كشكل، وصعلوك مثل عوض العوضى؟

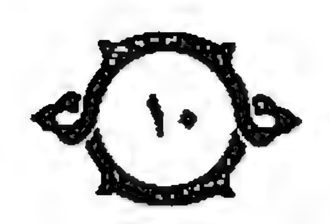
ثم أكمل وهو يمصمص شفتيه بأسى:

- لقد هزلت والله.

•••

حينما عُرض الأمر على النيابة، وأعادت استجواب المتهمين، أنكر الجميع ما نسب إليهم من اعترافات وأقوال،

بمن فيهم عوض العوضى، والراعى كشكل، وبعض صغار الشباب الذين تعرضوا لأنواع من الإيذاء لم يتحملوها، وقررت النيابة أن الأمر لم يأخذ شكل المظاهرة المدبر، ولكنه مجرد جنازة، لابستها ظروف خاصة، أهمها أن القتيل كان فى العراق، وأن الشائعات تسرى حول سوء معاملة المصريين هناك، وكان غضب الناس منصبًا على سلبية الموقف الرسمى للحكومة المصرية، وهذا حق، والدليل على ذلك تحرك الموقف الدبلوماسى فى الاتجاه الذى كان يراه أهل «الربايعة» وغيرها من القرى الأخرى فى أنحاء الجمهورية تلك التى أخذ ضحاياها الأبرياء يُشحنون كل يوم إلى مطار القاهرة الدولى..



«إلهى نامت العيون، وهدأت الجفون، وأنت حىٌّ قيّوم، لا تأخذك سنة ولا نوم. . إلهى قد فَسَدَت الأحوال، فلا تفتنا فى ديننا، ولا تحرمنا من ثواب ابتلائك لنا».

هكذا تكلّم أبو المجد فى جوف الليل قبل الفجر، وزوجه تنام على مقربة منه، تتقلب على الجنبين، وقالت والنعاس يداعب عينيها:

- ألا تنام قليلاً؟ أنت رجل كبير السن وتحتاج إلى الراحة.

رد عليها وهو يمسح على وجهه بعد أن تضرّع ودعا:

- سننام طويلاً. . ربما لقرون. . فلماذا لا نستعد ليوم الرحيل؟ الدنيا يا زوجتى دار عمل، والآخرة دار جزاء وليس فيها عمل. . .

قالت وقد جلست:

- فى الآخرة ما هو أعظم من العمل .

- ماذا ؟ ؟

- رحمة الله يا أبو المجد . . .

تنهّد فى ارتياح قائلاً :

- أحيانًا تنطقين كلمات يصعب علىّ الإتيان بمثلها . .

- أنت الذى علمتنى . .

- ليتنى أعمل بما أقول . .

لم يستطع أبو المجد أن ينسى تلك الإساءة البالغة حينما ضربوه على رأسه ، ومصدر أحزانه شىء قد لا يفكر فيه غيره ، أحيانًا يظن أنه ربما أتى عملاً سيئًا ، وأراد الله أن يكفر عنه ذنبه ، فعرّضه لتلك الإهانة المؤلمة ، وأحيانًا أخرى يرى أن ذلك كان اختبارًا . وأثناء ثورته وغضبه يصرخ فى الليل ضد أولئك المفترين ويدعو :

- يا رب خذهم بعدلك .

- ثم يعود ويبتسم ويتمتم بينه وبين نفسه : حين رأتنى الملائكة والضربات تنهال علىّ كانوا يبتسمون . . . يا فرحى ! ! الملائكة يبتسمون وأنا أسمعهم . . . لقد أعددنا لك قصرًا فى الجنة . . . مع أنك لا تشعر بالألم الجسدى . .

والغريب أن إبليس كان يرقص حولى ويغنى. . قال لى: يا أبو المجد لا تكن ساذجًا، والعب بهم كما يلعبون بك، وناور ونافق حتى تنجو من شرّهم وتهنأ بحياتك. . وهتف أبو المجد:

- اغربْ عن وجهى يا عدوّ الله.

أخذتنى يد إلى ظل شجرة وارفة، وبالقرب منى ينبوع من نور فشربت. . وشربت. . حتى ارتويت، ونظرت مغمض العينين فإذا بى أرى الأيدى البيضاء تحوطنى وتمنع عنى العدوان. وكأنى أسمع صوت أبى ذرّ الغفارى يقول: «أوصانى خليلى بقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة»، وأخذ يرددها ويهيم فى معانيها حتى كاد يغيب عن الوجود حوله. .

جاءته براعم فى الصباح على غير موعد، أرادت أن تصافحه وتقبّل يده. فلفّ يده بردائه، ثم جلست وقالت:

- لقد اخترناك.

- الخيرة فيما اختار الله.

- أنت أطهر القلوب فى قريتنا.

استعاذ بالله واستغفره وتمتم:

- أحثو فى وجوه المادحين التراب.

- أنا لا أمدحك لغرض دنيوى.. ولكن ألسنة الخلق أقلام الحق...

- غلبتنى امرأة...

صمت برهة ثم قال:

- لأية مهمة اخترتمونى؟

- لكى تقوم بنفسك - نيابة عنى - بتوزيع زكاة العنب.

أشرق وجهه بالفرحة الغامرة وقال:

- البركة تدخل قريتنا.

-أنت بركتنا.

لم يلتفت إلى عبارتها الأخيرة، فقد كان يمقت الغرور، ثم قال:

- هذا عصر الحب يبدأ فى قريتنا.

- كيف؟

- عندما يكفّ الناس عن الجدل، ويبدأون العمل، يتحقق الأمل، ويسود الحب والأمان.. هل هناك أعظم من ألا يبيت فى قريتنا جائع بعد اليوم؟

- إنه أمر يسعد قلبى يا سيدنا.

قال وهو يطوح رأسه يمينًا ويسارًا :

- لا الحرث ولا المال ولا الأنعام ولا الأبناء يصنعون المجد .

- فما الذى يصنعه إذن؟

- طاعة الله .

نظرت إلى وجهه الطيّب المشرق وقالت :

- أجل . .

- تصورّى لو أننا جميعًا نطيع الله ، فماذا سيحدث؟؟ لن يكون بيننا مظلوم أو مقهور أو جائع أو عاطل . . سوف تجود السماء ، ويفيض النيل ، وتخضرّ الأرض وتثمر أعظم الثمار ، وتندحر الكراهية والجدب . .

ترقرقت عيناها بالدموع ، تذكرت أنهم أهانوه ، قالت :

- هل ضربوك يا سيدنا؟؟

هز كتفيه وابتسم :

- بل ضربوا أنفسهم .

- لعنهم الله . .

- قولى هداهم الله . . إنهم لا يدرون ما يفعلون .

- وهل عذّبوا الشيخ حسب الله؟

- لقد زادوه إيمانًا وشرفًا . .

- لكنه أمر فظيع . . ويجب الانتقام .

قطّب جبينه وقال :

- سنكون إذن مثلهم . . ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت : ٣٤، ٣٥] هكذا قال الله . . .

- فما العمل إذن يا سيدى؟ إننى أشعر بالقهر من أجلكم . .

- أنا أجبت عن سؤالك . . ليس أمامنا سوى المزيد من العمل والطاعة والعفو .

- ألا يكون ذلك استسلامًا وضعفًا؟

- بل هو العزّة والقوة . .

ثم رفع عينيه إلى السماء وقال :

- إننى أرى البرق ، وأسمع الرعد .

نظرت مثله وقالت :

- لكننى لا أجد شيئًا مما تقول .

هزّ رأسه وأجاب بآية من القرآن:

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

قطع الحديث عليهما تصايح وأصوت مذياع وتلفزيون ولغط فى الخارج، وقدمت زوجة أبو المجد تقول:

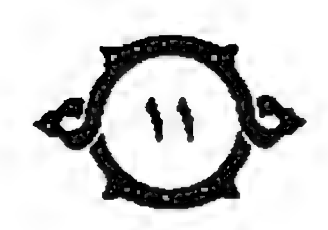
- يقولون إن العراق هاجمت دولة الكويت بجيوشها واحتلتها..

سالت الدموع من عينى أبو المجد، وأخذ يقرأ:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

قبل الفجر كان أبو المجد شاهين يسير فى شوارع القرية تحت جنح الليل ويقول بصوت شجىّ منغّم: «يا نائمًا مستغرقًا فى المنام، قم وحّد الحىّ الذى لا ينام».

□□□



تلقّت براعم مكالمة هاتفية من النائبة المحامية سعاد الدبّاح، أكّدت لها فيها أن متهمي قرية الربايعة سوف يُطلق سراحهم اليوم، بعد إنجاز بعض الإجراءات الأمنية التي لا بدّ منها، وأنها سوف تأتي معهم لتزور القرية لأول مرة في حياتها، حتى تفي بوعدها، وتشهد فرحة ذويهم بعودتهم، وكادت براعم تطير من الفرح، واستدعت عباس السمنودي وكلّفته بإقامة سرادق ضخم ترفرف عليه الأعلام والزينات، وتتألّق الأضواء الملوّنة، وتنحر الذبائح كي يأكل الناس في هذه المناسبة السعيدة، وترتّب حلقات الذكر وقصائد المديح النبوي، وقراءة القرآن من بعض مشاهير القرّاء، وذلك احتفالاً بعودة الرجال إلى أحضان قريتهم، وابتهاجًا بعيد الحرّية الذي لم تر َله القرية مثيلاً قبل ذلك.

كان عباس السمنودي بادي القلق إزاء هذا التصرف فهو يعلم أن الأمر يحتاج إلى تصريح رسمي من الجهات المعنية،

كما يعلم أن إقامة ذلك المهرجان قد يعتبره البعض تحديًا للحكومة، ومدعاة للشماتة والسخرية منها، إذ إنه يعنى أن المسئولين فى الأمن قد ظهر كذبهم، وتبدّى تلفيقهم، وانفضحت مكيدتهم.

قالت براعم:

- هل أصبح الفرح بمرسوم يصدر من الحكومة؟

- ليس ذلك ما أعنيه بالضبط.

- ماذا تعنى إذن؟

- بصراحة، نحن نزجّ بأنفسنا فى مسائل سياسية. وهذا يهدد نشاطنا الزراعى والتجارى بالخراب، وأنت يا براعم هانم قد رسمت لنا هذا الأسلوب من قديم... وكنت تقولين لنا دائمًا: لنبتعد عن السياسة...

حاولت براعم أن تبرّر تصرفها، وتشرح لعباس السمنودى كيف أن الحكومة تفرج عنهم بمحض إرادتها، واقتناعًا ببراءتهم، ولو كانت تعتبرهم معارضين أو مناوئين لها لما أطلقت سراحهم، ولاستصدرت أمرًا باستمرار حجزهم، وقانون الطوارئ عندئذ يكون فى صفّها، ومع ذلك فإن براعم اقتنعت أنه لا بأس من استئذان الإدارة وحضرة العمدة بعمل هذا الاحتفال الذى لن يكون به هتافات أو شعارات سياسية،

أو خطب حماسية، أو اتجاهات حزبية. فالباب مفتوح لأهل القرية جميعًا كى يشاركوا فى الأفراح، ويعلنوا عن حبهم ووحدتهم وتضامنهم، ولكى يكونوا ويظلوا دائمًا وأبدًا أسرة واحدة.

فى مقدمة الركب جاءت سيارة نجدة ببوقها المعروف الذى لا يكف عن إصدار الأصوات، وخلفها السيارة المرسيدس الفاخرة التى تجلس فيها النائبة المحامية سعاد الدبّاح وسيارت أخرى مرافقة، ثم ظهرت حافلة الرجال المفرج عنهم، وأيديهم تلوح من النوافذ، وقد اختلطت هتافاتهم وأصواتهم الفرحة، لكن الشيخ محمد حسب الله كان يجلس إلى جوار السائق صامتًا، وعيناه تجوسان فى حزن بين أمواج البشر.

قالت زوجة أبو المجد:

- ألا تذهب لتستقبل الإخوان وتهنئهم؟

قال وهو يهز رأسه:

- أنا لم أفارقهم قط.

- قم يا رجل مثل أهل البلد.

طوّح رأسه قائلاً:

- إننى هناك.. أعانقهم.. وأمسح الدموع عن عيونهم..

أنا هناك يا امــرأة. . والأفــراح تدق هنا فى قلبى، وتطرب أذنى. . هائم معهم دائمًا وهم يُساقون إلى العذاب. . وهم يعانون الحيرة والقلق. . وهم يستنشقون نسيم الحرية. .

- دع عنك هذا الكلام. . .

صمتت حينما سمعته يشهق باكيًا. . ثم يقول:

- هناك. . هناك.

- ماذا؟؟

أشار بيده قائلاً:

- جـهـة الشـرق. . المسلم يذبح أخاه المسلم. . والسـمـاء تصب الحـمـم على الأبرياء. . والأرض تتـفـجّـر بالنار. . والعمائر والمصانع والمتاجر ينهبها المغول ويدمرونها. . هناك هناك. . عذارى وأيامى ويتامى يستغيثون. . أليس هذا من علامات الساعة؟؟

أدركت مـاذا يعنى، فـهى تسـتـمع إلى المذياع، وتشـاهد التلفـاز، وتسـمع الناس يتناقلون أخـبـار الحرب، ولا حـديث للناس غير الحرب.

- هل رأيت أعـجب من هذه الأيام يا امرأة؟؟ الذئب يريد أن يحكم بالعدل، وينصف الفقراء. . إبليس يدعو الناس إلى

المحبة والمواساة والحب والإيمان . . وأعدى الأعداء يجلس على منصة القضاء ليحكم بين المتنازعين . . أعدّى الماء يا امرأة كى أتوضأ وأذهب إلى المسجد لصلاة العشاء .

- لكن اسمح لى أن أذهب وأتفرّج .

ابتسم وقال :

- لا بأس . . واحتشمى . . سأكون هناك .

- يا ربى . . لك عيون فى كل مكان . . !!

قطّب جبينه قائلاً :

- بل ملاك طاهر . .

●●●

وقفت السيدة سعاد الدبّاح أمام مكبّر الصوت ، وهى ترتدى زيًا أنيقًا محتشمًا بعض الشيء ، عارية الرأس ، على صدرها جوهرة ثمينة تشع بريقًا أخاذًا ، وأخذت تتحدث بلهجة أهل المدينة تمزج العامية بالفصحى ، وتنصب الفاعل ، وترفع المفعول - كما قال أحد الأزهريين - وتلوّح بيدها ذات الأساور الذهبية وكأنها فى ساحة محكمة ، أو فى صالة مجلس الشعب ، وعلى عينيها نظّارة سميكة ، كانت بادية السمنة ، لكنها رشيقة ذات وجه فيه بعض الوسامة ، وانصب

كلامها على الحذر من المتطرفين والإرهابيين والمتآمرين، وأكدت حرص الحكومة على مصالح الأمة، والخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة، ودلّلت على صدق نوايا الحكومة بالإفراج عن الرجال المحبوسين برغم الشبهات والظروف العربية والدولية الراهنة، وما يكتنفها من خطورة. كما أشارت إلى أن ما فعلته الحكومة مجرّد «إجراءات وقائية» لحماية الأمن، وفى النهاية لا بد وأن تعطى لكل ذى حق حقّه، ثم قالت:

- أما صاحبة الفضل الأكبر فى حل هذه المشكلة فهى الآنسة الحاجة الأستاذة براعم ملكة العنب.

ثم أمسكت بيد «براعم» ورفعتها إلى أعلى حتى المنصة.. ثم صفّقت بحرارة، وأخذ الحضور يصفقون معها تحيّة لبراعم التى اعتراها الخجل الممزوج بالخوف الغامض، فقاومت الصعود إلى المنصة وبقيت فى مكانها متشبثة بمقعدها، مما جعل سعاد الدبّاح تعلّق قائلة:

- هكذا يكون إنكار الذات.. ولقد تمنيت أن تكون براعم زميلة لى فى مجلس الشعب.. وفى الحزب لأنها خير من يمثّل آمالكم ومصالحكم..

عندما نزل الشيخ محمد حسب الله من الحافلة اندس وسط

الجموع، كأنه «فص ملح وداب»، ولم يدرِ أحد أين اختفى، لكنه في الحقيقة هرول إلى بيته، كان الباب مفتوحًا، والجاموسة تقف وحدها في الحظيرة، وتنظر إليه نظرات صلبة لا تنبض بشيء، ويبدو أن أمه قد ذهبت إلى المهرجان الكبير، هكذا ظن، وقد ثبت بعد ذلك أن ظنه صحيح، فقد أخذت المسكينة تبحث عن ولدها هناك، وتسأل الرائح والغادي، بدون جدوى، لكنهم أكّدوا لها أنه وصل معهم إلى القرية سالمًا.. وأخذت تحثّ الخطى بين الناس بحثًا عن وحيدها: «محمد يا ولدي.. محمد.. رد على أمك يا محمد..».

صحف الصباح المعارضة انتهزتها فرصة، خرجت إحداها بعنوان بارز يقول:

انتصر فكر «الربايعة»، وانهزمت الدبلوماسية المحترفة.

كيف يستطيع الجلادون إخفاء وجوههم القبيحة؟؟

وكتب أحد كبار الصحفيين يقول: «إن المظاهرة التي حدثت في قرية الربايعة تؤكّد الحسّ الوطني الصادق. وسلامة الوعي الجماهيري في القضايا العربية والدولية، وليس في الأمور المحلية وحدها.. ففي الوقت الذي كانت الدبلوماسية المتخلفة تحاول مداراة النظام العراقي، وتتستر على عيوبه البشعة، وتبذل دماء المصريين رخيصة بأيدي

البعثيين الأنجاس، كانت تلك القرية الصغيرة الربايعة، تعلن رأيها فى شجاعة وبساطة ونقاء، وتدين سياسة القمع الصداميّة، وتشجب تخاذل الحزب والحكومة إزاء ما يجرى على أرض العراق الشقيق. . حيّوا معى المواطن الغيور المخلص محمد حسب الله. . وحيّوا أبو المجد شاهين. . حيّوا الشباب الذين لعنوا عدوان النظام العراقى. . ذلك العدوان الذى بدأنا اليوم لعنه بعد أن داهم الكويت. . إننى أعترف أننا تأكدنا من استخدام العراق للغازات السامة فى حربه مع إيران، وفى قمعه للأكراد. . لكنا جبننا عن قول الحقيقة. . الحقيقة التى استطاعت قرية مصرية أصيلة أن تعلنها، وأن تتحمل العناء من التعذيب والقهر، وأن تدفع الثمن من دمائها ودموعها. .

عاشت الربايعة. . ويسقط المنافقون. . وتسقط الأقلام المستأجرة. . وصنّاع الأكاذيب والدعايات الرخيصة».

وامتلأت صحف المعارضة كذلك بصور فوتوغرافية لاحتفالات القرية، مع صورة خاصة لملكة العنب التى دافعت بكل ما تملك عن المظلومين وصورة للنائبة سعاد الدبّاح برغم كراهية المعارضة لها، وصورة أخرى لصبايا الربايعة وهنّ يغنين الأغنية الشعبية المشهورة:

على بيّاعين العنب

على بيّاعين العنب

العنب عنبى

والجنب جنبى

وانت يا شلبى

يا بتاع العنب .

وصلى الناس فى المسجد صلاة الشكر لله لنجاة أبنائها من بطش السلطة، ولأن الله بارك فى محصول العنب. وكانت مكبرات الصوت فى المساجد تردد القرآن الكريم فى الأوقات الخمسة، والمدائح النبوية التى تأخذ بمجامع القلوب، ومن الأمور الملفتة للنظر أن وفودًا من أهالى القرى المجاورة والكفور والعزب قدموا لمشاركة الربايعة أفراحها، والتعبير عن تأييدهم ومآزرتهم لإخوانهم، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل حضر أيضًا بعض الشخصيات المرموقة ذات النشاط السياسى والاجتماعى المرموق، مؤكدين أنهم يناصرون القرية الشجاعة ويقدّمون لها العون .

وتصادف فى هذا الوقت أن انهارت مستشفى الوحدة المجمّعة القديمة بالقرية، فحزن الناس لهذا الحدث المفاجئ، إذ

إن ذلك سيعطل نشاط الخدمات الصحيّة، ويلجئهم إلى الذهاب إلى المراكز والقرى المجاورة لعلاج مرضاهم، ومن عجيب الأمر أن الحكومة أهملت المستشفى لسنوات طويلة، واهتمت ببناء مسرح فخم، وغرف عديدة إلى جواره للرياضيين، ولم يحدث قطّ أن قدّمت مسرحية على هذا المسرح، كما لم تُلق فيه محاضرة ثقافية واحدة، أو أى نوع من الاحتفالات الشعبية فى المناسبات الوطنية أو الدينية. ودعا أحمد علام رئيس المجلس المحلى إلى جمع التبرعات لبناء المستشفى بالجهود الذاتية، وسخر الناس من هذه الدعوة لأنهم يعلمون جيدًا أن أىّ مبلغ يجمع سوف يُسرق نصفه على الأقل، ولن يعاد بناء المستشفى فى النهاية، بينما قال آخرون: إن الحكومة ملزمة بالبناء لأنها سبق وأرسلت لجنة من المهندسين فقرّروا عدم صلاحية البناء والبدء فى إخلائه فورًا وتأجير بيت بصفة مؤقتة ليمارس فيه الطبيب ومعاونوه عملهم ولو على نطاق ضيّق.. وهكذا أصبحت القرية بلا مستشفى، لكن عزاءها أن بها مسرحًا جديدًا للفلاحين..

إن الرابيعة فى عناء مستمر، فلا تكاد تخرج من ورطة، حتى تقع فى ورطة أخرى، ولا تتغلب على مشكلة حتى تداهمها مشكلة من نوع جديد، ورأى البعض أن تُوجّه زكاة العنب لبناء المستشفى، بينما عارض آخرون ذلك الرأى،

وقالوا : إن حق الفقراء فى لقمة العيش حق مقدّس لا يصح التفريط فيه . فالناس تصبر على آلام المرض . ولكنهم لا يصبرون على الجوع . .

قال الراعى كشكل وقد عاد إلى شلة الحشّاشين من جديد :

- لن يحلّ مشكلة المستشفى إلا عبد الشكور .

ظنوا أن عبد الشكور هذا مليونير كبير من أهل القرية لم تمكنهم الظروف من التعرّف عليه ، ربما لأنه قد هجر القرية منذ زمن بعيد ، عندئذٍ نفخ الراعى الدخان الأزرق ، ثم قهقه وقال :

- يا مساطيل ! ! ألا تعرفون عبد الشكور؟

- عرّفنا به يا فيلسوف الغبراء . .

- عبد الشكور شعلان يا بهائم . . أقطع ذراعى إن عرفه أحد منكم . . ذلك لأنكم جهلة . . عبد الشكور هذا هو مندوب صندوق النقد الدولى ، وهو مصرى الأصل من أهالى الشرقية ، لكنه أمريكى الجنسية . . .

قال أحد المساطيل :

- هل الأمريكان يسمّون عبد الشكور .

- ولم لا؟

مد أحدهم النرجيلة إليه قائلاً :

- خذ يا «ابوش» يا ابن مبروكة .

ضجّوا بالضحك ، ثم قال الراعى كشكل فى جد :

- إن تقارير عبد الشكور هى التى تمنحنا القروض أو تمنعها . .

رد أحدهم :

- نحن أهله ، فلماذا يضنّ علينا؟

- لأنه أصبح أمريكيًا . . والأمريكى رجل مصالح ، ولا يعرف العواطف ، ولا صلة الرحم . . ولهذا رفعوه إلى المركز العالى . .

علّق أحد الجالسين :

- لو كان ابن مزاج لما فعل ذلك .

رد فيلسوف الغبراء :

- المزاج شيء . . . والمصلحة شيء آخر . .

قال رجل فى آخر المجلس :

- هل يضربون الناس فى أمريكا على أردافهم كما يفعلون عندنا؟

أدرك الراعى أنه يعرض بقصة تعذيبه وضربه فى أمن الدولة، تضايق فى البداية، لكنه سرعان ما ضحك، وقال:

- أمريكا بلد العجائب.. الشعب هو الذى ينكّل بالشرطة.. ولكل فرد الحق فى تعاطى الحشيش علنًا فى الشوارع.. والنساء يعرضن أنفسهن بأسعار فى متناول الجميع وبالساعة.. إنها بلد الحريّة يا بهائم.. حريّة الجنس.. والمخدرات.. والسياسة.. السجون هناك مثل فنادق الدرجة الأولى..

قال أحد المبهورين:

- ولماذا لا نتجنّس بالجنسية الأمريكية؟؟ أليسوا فى حاجة إلى خبراء من أمثالنا؟

- بلدنا فى حاجة إلى خبراتنا، قولوا بربكم هل سيجدون من يضربونه إذا نحن هاجرنا؟! وإذ هاجرنا فلا بد أن نترك هنا أقفيتنا وأردافنا.

وقف أحدهم رافعًا يده:

- موافق.. ويكفينا ما تبقى فينا.

عادوا إلى الضحك من جديد، والنرجيلة تدور، والثرثرة لا تتوقف، و«أهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم، واتجمعوا يا ليل صحبة وأنا معهم»، وصوت كوكب الشرق يحلّق بهم فى آفاق زرقاء، هائمين فى عالم الوهم المثير.

- صدقوني يا إخوان، خير لكم ألف مرة أن تكونوا حشاشين من أن تكونوا رجال سياسة، لقد ازددت يقينًا أن الحشيش كالخبز يجب أن يحظى بالدعم.

- ارتفع سعر الرغيف ولم يعد له دعم.

- واشتعلت أسعار المخدّرات، وفرضت عليها الحكومة الضرائب والحراسات.

- هذا ظلم فادح، أصبح الحشيش من السلع الاحتكارية . . .

دار رأس الراعي كشكل، فلقد دخّن كثيراً، رءوس الرفاق تبدو كرءوس الإبل، وعيونهم تتقد شرراً كعيون العفاريت، وأنوفهم تضخّمت بشكل أسطوري واستطالت قاماتهم وهم جلوس حتى توشك أن تمسّ سقف الغرفة، وأمال رأسه على وسادة، وتمتم:

- الضرب على الأرداف يشعرك بالمهانة . . ليس في العالم جنّة غير هذا المكان . .

ثم راح في سُبات عميق.

ولم يطل استغراقه في النوم سوى ساعة واحدة، وفوجئوا برجال الشرطة يدقّون باب البيت، ثم ينتشرون في كل مكان.

- أين الراعي كشكل؟

أفاق الراعى من نومه مذعورًا، كان يفتح عينيه بصعوبة بالغة، عاجزًا عن استيعاب الموقف، من حسن الحظ أنهم قد أتوا قبل ساعة على كميّة الحشيش كلها.

- ليس عندنا حشيش يا بك.

- لم نجئ من أجل ذلك.

- السياسة طلّقتها بالثلاثة.

- لسنا من مباحث أمن الدولة.

- ماذا تريدون إذن؟

- ستعرف فى المركز.. مد يديك لوضعهما فى الحديد..

أخذوا الراعى كشكل وحده، ومضوا.. امرأته أخذت تصرخ حتى استيقظ الجيران عند منتصف الليل، والناس يتساءلون ماذا جرى؟ إذا لم يكن مقبوضًا عليه من أجل الحشيش أو السياسة، فأى جريمة أخرى يكون قد ارتكبها؟

❑❑❑



للقرية إحساس خفى عام، يمكن أن تدركه وإن عجزت عن الإمساك به ماديًا، فلكل حدث يطرأ تفسير أو تعليل سرعان ما ينتشر بين الناس، وكثيراً ما يصدق ذلك الإحساس، ونادراً ما يخطئ، لكن مصرع السلامونى أوقع الناس فى الحيرة، خاصة بعد أن ثبتت براءة كل الذين قُبض عليهم سواء أصحاب الحقل المسروق، أو أصحاب المكان الذى وجدت فيه الجثة، لقد انصرفت القرية بكليتها إلى موضوع جنازة قتيل العراق والمعتقلين الأبرياء، وجمع محصول العنب، لكنها لم تنس الجريمة، برغم برودة العواطف نحو الضحية، والأهم أن إحساس القرية لم يهتد إلى قتلة السلامونى، على غير العادة، ويكاد الشعور العام يجَمع على أنه سواء تم اكتشاف مرتكبى الجريمة أو لم يتم، فإن الموضوع لم يعد يشغلهم بصورة كبيرة.

كان دوى الخبر الجديد كالقنبلة، وهذا ما جعل أهل الربايعة يهبون دهشين متسائلين، لقد قبضت المباحث الجنائية على

الراعى كشكل وعلى زوجة السلامونى بتهمة القتل، وضرب الناس كفًا بكف، وفتحوا أفواههم فى استغراب، ذلك لأنهم لم يتوقعوا شيئًا كهذا، فالمرأة ضعيفة هادئة قليلة التذمر قليلة الكلام، والراعى ليس لديه اهتمامات سوى تدخين الحشيش وتدبير المال اللازم لذلك، وزراعته للعنب تكفل له ذلك، ولم يسبق للراعى أن شارك فى معارك عنيفة أو فى القتل، أو التدبير له.

الحقيقة أن المباحث حينما عجزت عن فهم طلاسم الجريمة وحل ألغازها، وتعرضت لغضب الإدارة فى المحافظة، قررت تكثيف العمل، فلم يعد من المقبول أن تقيد الحوادث ضد مجهول وإلا فسدت أحوال الناس أكثر مما هى فاسدة وتزعزعت أركان الأمن، وإلا فما قيمة قانون الطوارئ إذن؟ والصلاحيات المعطاة للمسئولين عن الأمن، وقال أحد صغار الضباط فى المباحث بالمركز: «فتش عن المرأة»، لم تلقَ فكرته اهتمامًا أو تأييدًا، فقد سبق استدعاء الزوجة «محاسن عبد البارى»، ولم تفد التحقيق بشىء ذى قيمة سوى أنه كان يحمل معه آلافًا من الجنيهات حول وسطه. ولم يعثر أحد على هذا المبلغ حتى الآن برغم البحث والتفتيش المستمرين، وبعد مناقشات وتحريات قال مدير المباحث:

- لا بأس.. فتشوا عن المرأة.

وفوجئت «محاسن عبد البارى» بالشرطة تحاصر بيتها وتندفع إليه، كاد يغمى عليها من هول المباغتة، فقد مر وقت دون أن يعاود أحد التحقيق فى مصرع مصطفى السلامونى، وكان من المتوقع نسيانها.

قالت محاسن وهم يضعون يديها فى الحديد:

- يا بك.. موت وخراب ديار؟؟ أنا صاحبة المصيبة فكيف تقبضون علىَّ مرة أخرى.

لم يكترثوا لكلامها، وجروها إلى الخارج، صاحت:

- وأولادى، من يرعاهم؟؟ أحضروهم معى.

وواصلوا جرها بدون أن يردوا عليها، حدثها قلبها بأن هناك خطراً يهدد حياتها، وإن لم تتأكد من حقيقته، وفى الشارع صاحت بأعلى صوتها والناس نيام:

«الحقونى.. أغيثونى.. يا عالم.. يا هوه.. عصابة تختطفنى..».

كان الوقت ليلاً، وهرول عدد قليل من الناس يفركون النوم عن عيونهم، ولم يستطيعوا تقديم أى عون لها، خاصة أن الضابط أبرز تصريح النيابة بالقبض عليها، واستشهد بشيخ الخفراء بأنهم من المباحث.

قـال الضـابط الملازم وهو يهـز فى يده عـصى خـيـزرانيـة والزبانية حوله :

- أنا كولومبو . . هل سمعت عن كولومبو؟

- لا يا بك . .

- قال فى خشونة :

- من قتل زوجك؟

وكم كانت دهشة الضابط حينما سمعها تقول :

- الراعى كشكل يا بك .

حملق فيها الضابط مذهولاً :

-من؟؟

- الراعى يا بك . . الحشاش . الله يخرب بيته .

- ولماذا لم تخبرينا منذ البداية . . ؟

- هددنى بالذبح .

- أتتسترين على سافك دم زوجك؟

- لم أشعر أنه زوجى أبداً . . كنت أخاف أن يقتلنى مثلما فعل فى زوجتيه الأولى والثانية .

- عمرك كم سنة؟

- ثلاثين.

- ومنذ متى تزوجت السلامونى؟

- من عشر سنوات.

- وكيف تزوجت رجلاً فى سن أبيك.

- أمر الله.. لم أكن أعرف.

- وكيف عرفت أن القاتل هو الراعى كشكل؟

- اعترف لى، ووعدنى بالزواج بعد انتهاء العدة.

صفق الملازم فى سعادة، وقال:

- ليلتنا أنس.. سوف يحلو الكلام.. أستطيع أن أتصور بقية التفاصيل..

بكت محاسن بمرارة وقالت:

- ليس لى ذنب يا بك.. أنا امرأة مكسورة الجناح.

- كسر الجناح يا محاسن أخف من كسر الرأس.

ردت والدموع تنهمر:

- كسر الجناح أصعب يا بك.

وأسرعوا بالقبض على الراعى كشكل، الذى أخذ يحتج ويثور، ويشكو من الظلم الذى حاق به، فبالأمس اعتقلوه

بتهمة السياسة، واليوم يمسكون به بعد أن أفرج عنه بقليل، وهو حائر فى تفسير ما يجرى حوله. فى البداية أنكر بشدة أن يكون له أدنى علاقة بزوج محاسن عبد البارى، التى فسر اعترافاتها بأنها مؤامرة خسيسة؛ ذلك لأنها كانت تحاول أن تجره إلى الفحشاء، وهو رجل يخاف الله ولم يفعل شيئًا كهذا فى حياته، ولو أراد أن يستولى على محاسن لفعل ذلك ببساطة بدون حاجة إلى القتل، خاصة أنها هى التى كانت تغريه، وتطارده، وتسافر وراءه إذا سافر إلى المدينة لأى سبب من الأسباب، وهو حينما يقول إنه ليست له أدنى علاقة بها إنما يقصد أنه لم يفكر فيها أو يشتهيها، بل كانت شيئًا تافهًا بالنسبة له، وهناك آلاف النساء غيرها يتميزن بالحسن والجاذبية.

نظر إليه الملازم قائلاً:

- أنا كولومبو.. هل تعرفه؟

- نعم يا بك.. بطل حلقات التلفزيون.

- عظيم. أنت مثقف ومطلع.. وصاحب مزاج، وأنا أحسن التفاهم مع أمثالك.

- أنا فى خدمة العدالة.

- كم عمرك؟

- اثنان وأربعون.

- وظيفتك؟

- زارع وتاجر عتب.. وعضو فى الحزب الـ..

- اخرس.

تمت المواجهة بين الراعى ومحاسن، وتعمد الملازم أن يبلغها بما قاله الراعى فى حقها، خاصة ما يتعلق منه بمطاردتها له، وأنه سخر من مشاعرها وحسنها، فقالت فى غضب:

- أيها الكلب أنت الذى كنت تجرى ورائى.

قال ساخراً.

- أنا؟ هل عميت.

استبد بها الضيق وقالت حانقة:

- اسأله يا بك عن العشرين ألف جنيه التى كانت فى الحزام.. فتشوا بيته.

تصنَّع ابتسامة ماكرة وقال:

- وهل يحتفظ اللص بما يسرقه فى بيته أيتها المجنونة؟ لو صدق ما تقولين فلن يجدوا شيئًا فى بيتى.

ثم التفت إلى الضابط وقال:

- هى القاتلة يا بك . . افحصوا الفأس التى عندها فى الغيط .

لقد ثبت بعد جلسات عديدة من التحقيق، وبحضور النيابة، أنه كانت هناك علاقة آثمة بين محاسن والراعى، وأنهما اتفقا ودبرا الجريمة معًا. لكن الراعى أصر على أن يكون التنفيذ قاصرًا عليهما فلا يستعينان بأحد، كما أصر على أن يضربه بالفأس وأن تشترك محاسن بفأسها أيضًا، كما أنهما دسا له العنب المسروق، ونقلاه جرًا إلى مكان آخر، وكانت النية أن يقذفا به فى الترعة، لكنهما خافا أن يكتشفهما أحد، فاكتفيا بنقله لمسافة لا تتجاوز خمسين مترًا تقريبًا. كما اعترفا بأنهما نزعا الحزام وأخذا الآلاف واقتسماها معًا، استعدادًا ليوم الزفاف الذى يترقبانه بعد انتهاء العدة الشرعية.

فى التحقيق قال الراعى كشكل:

-اثنان أفسدا حياتى، المخدرات والنساء.

أما محاسن، فقد كانت دموعها تنسكب باستمرار، وتدارى وجهها بشال أسود بصفة دائمة، وكأنه عورة لا تريد لأحد أن يقع بصره عليه وقالت:

- لقد كرهته . . لم أكن أطيق رؤية وجه السلامونى . . إننى عشت معه كخادمة لا كزوجة . . كان قذرًا . . شيطانًا . .

دميمًا . . لم أشعر معه فى أى وقت أنى امرأة . . الجريمة جريمة أهلى وجريمة السلامونى أيضًا . . ولو عاد إلى الحياة لقتلته . . لست نادمة على شىء . . هذا البنى آدم كان يجب أن يموت . . لأنه قاتل . . ولص . . وعجوز . . وبخيل يقرض الناس بالربا . . ولا يفكر إلا فى نفسه .

وشُغلت القرية بقضية السلامونى كانشغالها بغزو العراق للكويت وتحريك أمريكا ودول أخرى قواتها إلى الأراضى العربية لتحقيق الشرعية الدولية كما يقولون ، فلا يوجد تجمع فى الربايعة إلا ويعلق على مصرع السلامونى ، والعدوان العراقى ، خاصة أن أهل القرية بعد أن كاد موسم العنب ينتهى كان لديهم وقت الفراغ الكافى ليكثروا من الأحاديث والتعليقات والاستماع إلى الراديو ومشاهدة التلفزيون وقراءة الصحف ، واهتمت الصحف مرة أخرى بقرية الربايعة ، فبالأمس كان المعتقلون مثار الحديث ، واليوم أصبحت جريمة الحسناء الفلاحة «محاسن» قضية اجتماعية يناقشها علماء النفس والاجتماع ، ولم يغب الراعى كشكل عن اهتمامات الصحف ، باعتباره مدمن مخدرات وأن المخدرات باب من أبواب الجريمة والفساد والإفساد . . لقد أصبحت الربايعة كما يقول حضرة العمدة الحاج عبد الشافى وهدان : «علمًا فى رأسه نار» .

وكان الشيخ أبو المجد يجلس فى صومعته مفتوحة النوافذ والأبواب على الجهات الأربع الأصلية ويقول :

- أتدرون من المتهم الأول فى قضية السلامونى؟؟

إنه ليس الراعى كشكل، ولا محاسن عبد البارى .

تساءل أحد الحضور :

- من يا سيدى؟ .

فتح عينيه المغمضتين وقال :

- المتهم الأول هو الطمع . . القاتلان والقتيل طامعون . . الراعى ومحاسن وصدام طامعون . . اقتلوا الطمع ولا تقتلوا أنفسكم . . عندئذ تنتصر إرادة الحياة . . ليس من الضرورى أن نريق الدماء لينمحى الظلم، وينتصر العدل، أقول لكم اقتلوا الطمع وأهواء النفس تسعدوا . . ولا أقول تثروا . . وإذا كانت الحكومة عاجزة عن تحقيق العدل والنظام للجميع، فلماذا لا نحاول نحن كقرية أن نحقق ذلك . . هو حلم قديم يتراءى للناس فى منامهم . . لكنه ليس صعب التحقيق . .

قال عوض العوضى وقد حضر :

- كيف يا سيدنا؟

- اعرف أولاً ما لك وما عليك .

- حقوقى كثيرة ضائعة .

- عليك أن تثبتها .

- يكاد لا يسمعنى أحد ، وكأنى يجب أن أعيش بلا حقوق .

هز أبو المجد رأسه وقال :

- يا بنى ، ادخل من باب الحلال .

- الناس لم تعد تفرق بين حلال وحرام .

- كذبت .

- أليست هذه هى الحقيقة يا سيدنا؟

- ألم تهيئ لك براعم فرصة العمل؟

- بلى .

- ألم نخرج لك قدراً من زكاة العنب؟

- بلى .

- فماذا تريد بعد ذلك؟

صمت عوض العوضى وحك قفاه ، ولم يجب ، فاستطرد أبو المجد :

- إنك تريد الخمسة عشر . . والعشرة مائة . . والمائة ألف . . وتريد أن يدفع لك الناس ثمن أيام العذاب .

طأطأ عوض رأسه ، وأخذ يفرك يده ، بينما قال أبو المجد :

- ألم أقل لكم إن المتهم الأول هو الطمع ؟

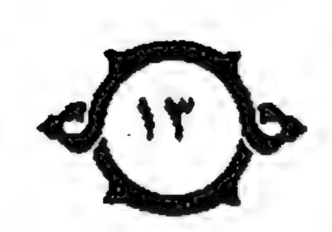
انكب عوض على يده مقبلاً معتذرًا :

- سامحنى يا سيدنا .

- احمد الله . . فهذه بداية الطريق : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله والحمد لله ، قلهما يا عوض من قلبك وأنت مغمض العينين ، أو مفتوح العينين وتدبر معانيهما . . حتى لا تصبح مجرد كلمات جوفاء . . لقد كنت دائمًا حريصًا على سرقة أشياء الدنيا ، وقد آن الأوان لتكتسب محاسن الآخرة . .

وابتسم الناس فى مرح حينما قال عوض العوضى :

بالله عليك لا تذكر لفظ محاسن يا سيدنا .



عاد الأستاذ محمد حسب الله إلى مجتمع القرية من جديد، بعد أن أمضى فترة نقاهة خارجها، واستعاد ثقته الكاملة بالحياة والناس، وأدرك أنه لم يعد بقادر على أن يهجر قريته -وقد فكر فعلاً فى ذلك- لأنه يحبها، ولأنه من صناع الفكر والرأى فيها، وعلى يديه تربى جيل من الشباب فى الأدب والأخلاق والفقه والعمل الجاد، وعادت أمه مسعدة إلى طبيعتها، والدليل على ذلك أنها لا تكف عن الشجار مع جاموستها الحبيبة، وما زالت تتهم تلك الجاموسة بالتمرد والفجور وقلة الحياء، وغير ذلك من الصفات السلبية التى تنطبق على بعض الناس، وكأن الجاموسة من البشر، تقول لها: «يا ناكرة الجميل، طالما سهرت إلى جوارك وأنت مريضة، وهأنذا أرعاك وأنت حامل. ألست خجلى من نفسك؟ واليوم تعاندين وترفضين إدرار اللبن. لماذا؟ إن مدة الحمل حتى الآن ثلاثة أشهر، ولا بد أن تستمرى فى العطاء حتى الشهر السابع

أو الثامن، أهو الخبث والجشع؟ إن ثمن طعامك أكثر مما يتكلفه طعامى أنا والشيخ محمد. وأنت بهيمة. . ماذا لو كنت تقفين فى طابور الجمعية، آه يا ملعونة. . أنا أقدم لك كل شيء جاهزاً. . حتى فى الأيام السوداء التى قبضوا فيها على الشيخ محمد كنت تأكلين أكثر وأكثر وأنا لا أضع الزاد فى فمى. . لو لم أكن أحبك لجلدتك كل صباح حتى تدرى اللبن. . لكنك تعيشين مدللة. . منعمة. . مكرمة حتى فى الوقت الذى كانوا يجلدون فيه ولدى. . هل أقول إن منزلتك عندى تقارب منزلة ولدى؟؟ لقد أفسدك التدليل فعلاً. . وستدرين اللبن شئت أم أبيت، وإلا فسأبيعك فى سوق «الاثنين» كما تباع حثالة البهائم، ولن أذرف عليك دمعة واحدة».

عندئذ زامت الجاموسة وأخذت تدب برجليها، وتضرب بذيلها، وتحرك رأسها يمنة ويسرة، ثم تنطح «المزود» الذى تأكل منه. . فاستبد الغضب بمسعدة، وصرخت:

- اعقلى يا مجنونة.

خرجت وأحضرت عوداً من حطب جاف، وأخذت تضربها على ظهرها بدون عنف، والجاموسة لا تكف عن الحركة المتمردة، فابتسمت مسعدة، وقذفت بعود الحطب بعيداً، ثم أخذت تمسح بيدها الحانية على ظهر الجاموسة وعلى جسدها وهى تتمتم:

- هل غضبت منى؟؟ أردت فقط أن أعلمك كيف يكون الأدب، وكيف تكون تصرفات الناس المحترمين . .

يروى الشيخ محمد حسب الله وهو يضحك لأصدقائه، أنه عندما قرر أن يرحل عن البلد، انزعجت أمه لحظة، لكنها قالت :

- طبعًا سنأخذ الجاموسة معنا .

- مستحيل يا أمى، كيف تعيش معنا فى شقة بالقاهرة؟

عندها شحب وجه مسعدة وقالت :

- أنا . . وأنت . . والجاموسة شىء واحد . . إذا فرطت فى الجاموسة فمعناه أنك تفرط فىَّ، إن حبى لها كحبى لك :

رد عليها فى شىء من الضيق :

- ماذا تفعلين لو ماتت؟

بان الحزن فى وجهها وعينيها وهمست فى نبرات مرتعشة :

- الموت مكتوب علينا، ولا حيلة لنا فيه .

- افترضى أنها ماتت .

- سأبكى من أجلها بدل الدموع دمًا . . إن لحم أكتافنا منها .

- إنهم يذبحون الجاموس كل يوم.

- ويذبحون البنى آدم.

- ففيم الحزن والخوف عليها؟

- لقد عاهدتها على الوفاء حتى النهاية.

ويضحك الشيخ محمد فى سعادة، ويؤكد أن مشكلة الجاموسة كانت سببًا مهمًا فى عدم تركه للقرية والسفر نهائيًا إلى المدينة، وهو لا يستنكر هذا الحب، لكنه غير مرتاح للمبالغة فيه، فكيف يتصور أن ترفض أمه السفر معه وتفضل البقاء مع الجاموسة.

●●●

وقف الشيخ محمد حسب الله فى المسجد بعد صلاة الجمعة ورجا الحاضرين أن ينتظروا بضع دقائق ويستمعوا له، وكان المصلون يظنون أنه سوف يتناول مسألة فقهية كدأبه دائمًا بالشرح والتوجيه، ودهش الناس، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض حينما قال: «أحدثكم اليوم عن ابنة الربايعة الشريفة العفيفة.. الخيرة.. النيرة: الآنسة براعم» تساءل الناس ما الحكاية؟ وهل يليق فى المسجد: أن يقال مثل هذا الكلام؟ إن المسجد جُعل للصلاة والعبادة وعلوم الدين، أما مدح النساء هنا فهو أمر مستنكر.

وتحدث الشيخ حسب الله (ولم يختصر كما وعد فى البداية) عن الأحاديث النبوية التى وردت عن الإحسان وجزائه فى الآخرة، وعن حب الناس والتفانى فى خدمتهم إرضاء لله، وعن أفعال الخير الكثيرة التى تصلح من حياة الناس وشأنهم وخدماتهم العامة، وعن ثواب من يدافع عن المظلومين، وينصف المقهورين، ويجبر القلوب الكسيرة وينشر الفضائل بين الناس، وروى عن الرسول ﷺ حديثًا قدسيًا يقول ما معناه: «يا عبدى لم تشكرنى ما لم تشكر من أجريت النعمة على يديه لك» وحديثًا آخر يقول: «من صنع لكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له».

ثم كشف لأول مرة الدور البطولى الذى قامت به براعم تفصيليًا لدى المحافظ، وفى أمن الدولة، والقيام بالكثير من الجهود والتضحيات حتى يفرج عن أبناء الربايعة، ثم مشروع زكاة العنب الذى كونت له لجنة من أفاضل الناس، فعم الخير والرخاء البلدة بأسرها، بل إنها رصدت ميزانية لرعاية أطفال مصطفى السلامونى وزوجه حتى لا يضيعوا، أو يودعوا فى الملاجئ، وساعدت الطلبة الفقراء برصد مبلغ مالى شهرى حتى يستطيعوا مواصلة تعليمهم.

وهذا -أيها الناس- هو الإسلام الحقيقى، فإذا أردنا أن نحقق مبادئ الإسلام فى الدولة، فلنبدأ بأنفسنا وأسرنا، ثم

إلى قرانا الصغيرة، ولا ننتظر انقلابًا مفاجئًا يطبق شريعة الله، فالإسلام رجال قبل أن يكون سلاحًا ومعارك دامية، وكما تكونوا يولّى عليكم. . .

وإنى أقترح عليكم أيها الإخوة المؤمنون أن نخرج جميعًا ونسير معًا إلى بيتها لنقدّم لها هدية تعبيرًا عن حبنا واحترامنا لها ولأعمالها. ثم انحنى وتناول لفة، وفضّها فإذا بيده مصحف ثمين رفعه إلى أعلى قائلاً فى حماسة:

وتلك هى الهدية.

فكبّر الناس وهلّلوا، ولقى الأمر استحسانًا كبيرًا لديهم، وخرجوا إلى الشارع وعلى رأسهم الشيخ محمد حسب الله، والشيخ أبو المجد شاهين، وحضرة العمدة الحاج عبد الشافى وهدان، بل وضابط نقطة الشرطة أيضًا، وساروا فى موكب مهيب، وكلما مضوا خطوات، انضم إليهم السائرون فى الشارع وهم يتساءلون، وخرج من فى البيوت تاركين غداءهم ليلتحقوا بالركب، وحرصت بعض النسوة على أن يشهدن تلك الساعة المهمة فى تاريخ الربايعة، كما تقاطر الأطفال من كل صوب. .

كانت براعم مستلقية فى غرفتها، حينما جاءت إحدى العاملات لديها وقالت:

- انهضى يا ست براعم . . البلد كلها تحاصر البيت . .
شحب وجهها ، وتلاحقت ضربات قلبها الشاب ، وهتفت فى حيرة :

- خير ماذا جرى؟

- اخرجى إليهم . .

لم يكن لديها وقت للتفكير ، وكيف تفكر وهى لا تعلم أساسًا سبب ذلك الحشد الكبير؟؟

وقالت العاملة :

- رأيت العمدة والشيخ محمد حسب الله والشيخ أبو المجد معهم .

شعرت بقدر من الارتياح ، واستبعدت الخواطر السيئة ، لكنها ظلّت تغالب أمواج الحيرة التى تتدافع داخل نفسها . . وارتدت كامل زيها المحتشم ، وهرولت متعثّرة الخطى إلى خارج البيت ، وحينما ظهرت أمامهم ، قوبلت بعاصفة من التصفيق والهتافات . وصعد الشيخ حسب الله فوق مصطبة أمام البيت وقال :

- إننا نعرف الفضل لذويه ، ولقد كنت يا براعم مثلاً حيًا للنبل والخير والعطاء لوجه الله ، وكنت وما زلت قدوة حسنة

لبنات جيلك . . بل لرجاله أيضًا . . لكأننا نعيش عصر الطهارة والكرامة والعدل الذى عاشه أسلافنا العظام، الذين حملوا راية العدل خفّاقة فى العالمين . فباسم كل رجل . . وكل امرأة . . وكل طفل فى قرية الربايعة أقدم لك الشكر والعرفان . . وتقبّلى منّا هذه الهدية العظيمة رمزًا لتقديرنا ومحبتنا . . إنه كتاب الله هدية السماء إلى الأرض . . إننا لم نشأ أن نحضر لك هدية الأرض . . فأتينا بهدية من السماء . .

سالت الدموع على خديها . . وكادت تسقط انفعالاً . . ثم تناولت المصحف . . وأخذت تقبّله . . وتبلّله بالدموع فى عشق نورانى . . وتمتمت :

- هل أنا فى حلم؟؟

لم أفعل ما يستحق كل ذلك .

إنه واجبى نحو أهلى . .

حياتى من حياتكم . .

أحببتكم كما أحببتمونى .

وكل ما أنفقته كان من مال الله .

ثم أخذت تجفف دموعها .

لكن الشيخ أبو المجد رفع يده عاليًا وقال :

- إنى داعٍ، فأمِّنوا:

«اللهم يسّر لها أمرها..

وحقق لها أملها..

ولا تخذلها ولا تفضحها..

وبارك لها فى دينها، وفى صحتها، وفى مالها، وفى عمرها.. وفى عملها، واجعله خالصًا لوجهك..

اللهم اهدنا فيمن هديت..

وعافنا فيمن عافيت..

وتولنا فيمن توليت..

وقِنا، واصرف عنّا شرّ ما قضيت..

فإنك سبحانك تقضى بالحق ولا يُقْضَى عليك..

وإنه لا يعز من عاديت، ولا يذل من واليت..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

آمين.. آمين.. آمين يا رب العالمين».

وسرى الخبر مسرى النار فى الهشيم، ووصل إلى القرى والكفور المجاورة وتحدّث به الناس فى كل مكان ووصل الأمر إلى المحافظ وإلى العاصمة، أما المحافظ فقد صرّح قائلاً: «إن

ما تقوم به الآنسة براعم يعتبر تنفيذاً أميناً لسياسة «الجهود الذاتية» التى يدعو إليها الحزب، لأن الحكومة لا يمكن أن تلبى كافة احتياجات المجتمع، وعلى القادرين من أبناء الشعب أن يساهموا بأموالهم وجهودهم حتى لا تتعثر سياسة الخدمات العامة . . إننى أكرر شكرى للآنسة براعم على مساهماتها النبيلة فى الجهود الذاتية» .

وقدم إلى قرية الربايعة بعثة تلفزيونية على رأسها مذيعة شهيرة، وكذلك فعلت الإذاعة، وعدد من محرّرى الصحف، لكن براعم رفضت مقابلة أى واحد من وسائل الإعلام قائلة :

- هذه فضيحة . . إن ما فعلته لم أقصد به سوى وجه الله .

واكتفى الإعلاميون بإجراء مقابلات مع عدد من رجال القرية ونسائها وأطفالها حول أعمال «براعم» وحياتها . .

●●●

فى المساء تنهّد الشيخ محمد فى ارتياح، وحمد الله، وسأل أمه عن الجاموسة، فأفادت بفرح أنها رضيت أخيراً وجادت بكمية كبيرة من اللبن..

ثم توقفت مسعدة فجأة عن الحديث حول الجاموسة وقالت :

- متى تتزوج يا محمد؟ أريد أن أفرح بأولادك . . ابتسم الشيخ محمد وقال :

- سوف تصرفك الجاموسة عن رعايتهم .

دفعته بيدها فى حنان وقالت :

- جرّب وسترى . . لقد بلغتَ الثلاثين يا ولدى .

مط شفتيه وقال :

- وأين العروس؟؟ يدى على كتفك .

قالت مسعدة بسذاجتها المعهودة :

- لماذا لا تتزوج براعم؟

قهقه هذه المرة، وجلس بعد أن كان مضطجعًا وقال :

- وهل تتزوج الملكة واحدًا من السوقة؟

- ولم لا؟؟

- لأن للملوك طقوسًا وتقاليد، هل سمعت عن ملك بريطانيا جورج الخامس الذى أجبروه على التنازل عن العرش لأنه تزوّج امرأة من النساء لا تنطبق عليها الشروط . .

- لا أعرف جورج الخامس ولكنى أعرف براعم .

تنهد وقال :

- قومى يا والدتى واعلفى الجاموسة . .

- لماذا تتهرب من الزواج؟ ألست رجلاً . .

قال محمد وهو يعود إلى الاضطجاع :

- هل تبيعين الجاموسة؟

- بعيد يا شرّ . . لماذا؟؟

- لكى نجمع الأموال اللازمة للمهر والشبكة وإصلاح البيت .

أعطته ظهرها غاضبة وهى تقول :

- جاموسة فى عينك!! ماذا بينك وبينها؟ أتغار منها؟

- أرأيت يا أمى! وكيف أتزوج؟

- لا تستطيع أن تعيش بدونها .

- الزوجة؟

- لا . . . . الجاموسة . .

ونام محمد يفكّر فى كل ما قالته أمه . .

وأخذ يحلم قبل أن يداعب النوم أجفانه . .

أهل القرية كادوا يستلقون على أقفيتهم من الضحك عندما

علموا أن الأستاذ أحمد علام رئيس المجلس المحلى بالقرية ذهب إلى الآنسة «براعم» وقال لها :

– ألا تعلمين أن جمع التبرعات ممنوع إلا بموافقة من الوزارة المسئولة .

– أعلم .

– فلماذا تخالفين القانون؟

– أنا لا أجمع تبرعات ، بل أوزّع الزكاة والصدقة والإعانات للمحتاجين .

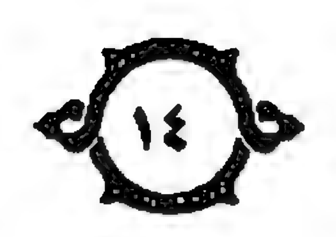
– ولماذا لا يكون ذلك عن طريق المجلس المحلى؟ ألا يمكن أن تتسرّب بعض هذه الأموال إلى أيدى الإرهابيين والمتطرفين؟!

– ألهذا أتيتنى؟؟

ولم تنتظر منه الإجابة ، بل أشارت إلى سائقها ، وركبت سيارتها . .

وتركته واقفًا يكزّ على أسنانه .

□□□



الناس في الرابيعة يتحدثون عن غارات محتملة بالغازات السامة وقذائف الميكروبات، وصواريخ «سكود»، وربما القنابل الذريّة. ويزعمون أن صدّام سيضرب السد العالى فتغرق مصر كلها لأن مصر أرسلت جزءًا من جيشها لتحرير الكويت المغتصبة، قالت مسعدة لابنها الأستاذ محمد حسب الله:

- سيوزعون الأقنعة الواقية على الناس.

- ربما.

- والجاموسة يا محمد؟ هل ستتركها بدون قناع؟ قطعًا ستموت.

- الله هو الحافظ.

- أعرف، لكن لا بد أن تفعل شيئًا لحماية الجاموسة، إنها روح.. وهى لم ترتكب ذنبًا.. ولا تنسَ أنها حامل، ويقولون إن الإشعاعات تشوّه الجنين..

ابتسم محمد وقال :

– فى مصر ملايين الجاموس . . وملايين الأبقار والإبل والأغنام والدواجن . .

– لا شأن لى بذلك كله . . يجب أن تفعل شيئًا لجاموستنا وإلا أحرقنا الله بغضبه .

وأخذت مسعدة تفكر ليل نهار فى هذا الموضوع الذى أصبح شغلها الشاغل .

لكن الربايعة كلها تتحدث عن الحرب ، فهناك الأعداد الكبيرة من الشباب الذين يعملون فى العراق والكويت والمنطقة الشرقية فى السعودية ، وكثير من هؤلاء المساكين قد حُوصِرُوا فى الكويت والعراق ، ويحاولون الفرار عن طريق الأردن ، والقرية لا تكف عن تداول القصص والأخبار التى تتعلّق بهؤلاء الفارّين من الغارات الجوية الأمريكية والأوربية الرهيبة ، وبليالى الشتاء الباردة التى تطاردهم على الحدود وهم لا يجدون الطعام والماء والغطاء ، بعد أن فقدوا أمتعتهم وأموالهم وآمالهم ، إنهم يزحفون عرايا جياعًا مساكين إلى صدر الوطن الحنون . ومن ضمن القصص التى تُروى أن عذراء ممرضة تعرّضت لعدوان الجنود العراقيين فأراقوا دمها وشرفها فى عرض الشارع بالكويت ، وقذفوا بها جريحة

ضائعة، حيث التقطتها إحدى الشاحنات، ونقلتها إلى ميناء العقبة. . والمسكينة لم تجرؤ على العودة إلى الربايعة، بل انزوت في مكان مجهول بالقاهرة لتداوى جراحها، وأهلوها قد لاقوا شتى صنوف المتاعب بحثًا عنها؛ وتتحدّث الأنباء عن طبيب مصرى متخصّص في القلب والرعاية المكثّفة اغتاله الغزاة في «مستشفى الصباح» بالكويت لأنه تستر على رجل من رجال المقاومة بعد أن أسعفه؛ وعن شاعر مرموق رفض أن يهتف بالشعر، ويتغنّى «بأم المعارك» كما تسميها العراق؛ وعن مطرب معروف أبى أن يغنّى للمعتدين، وعن ممثّلة لم ترضَ بأن ترفّه عن الجنود الأشاوس الذين قدموا لنشر العدل في الأرض العربية. .

قال عوض العوضى وهو يستمع إلى شرح الأخبار والتحليلات السياسية التى يعبر عنها المتعلمون وهم يقرءون الصحف:

- أنا أيضًا متضرّر. . وإذا كان مجلس الأمن يرسل آلاف الملايين تعويضًا للدول التى تضررت من الحرب، فأنا أولى بذلك.

ودلل على ما يقول بأنه كان من أول من هتفوا ضد العراق في الجنازة وقبل أن تقوم الحرب، وأن قفاه يشهد على ما عانى

من صفعات، ثم إن هناك الكثيرين من أصدقائه وأقربائه ماتوا أو فقدوا في العراق.

- احمد ربنا يا عوض أن نَجْوتَ بنفسك.

- لا بد أن أكتب شكوى لمجلس الأمن.. حتى إسرائيل أخذت تعويضًا بآلاف الملايين..

قال أحدهم ساخرًا:

- خذ حسابك من التعويضات التي أعطيت لمصر..

- عليه العوض ومنه العوض..

عندما علم حضرة العمدة الحاج عبد الشافي وهدان بما يقول عوض العوضي ضحك من أعماقه، ثم هزّ رأسه وقال:

- إنها وليمة..

- من أقامها.

- أمريكا طبعًا.. لكن للأسف أمريكا لا تعرف عوض العوضي، ولهذا لن يناله نصيب منها.

ثم التفت إلى من حوله قائلاً:

- أليس ما يجري يعتبر من علامات الساعة؟ إنها فتنة أيها الرجال.. لقد انشق العالم العربي إلى فرق وطوائف،

وتبدّدت وحدة الأمة الإسلامية . . والظلم له أنصار، والحق له أنصار.

قال محمد حسب الله :

- صدقتَ . . هى الفتنة . . دماؤنا هى التى تسيل، وأموالنا هى التى تحترق، ومنشآتنا هى التى تدمر . . نحن النار والوقود، والقاتل والقتيل، والمنتصر والمهزوم . . والذى يجنى الثمار أمريكا وإسرائيل . .

لقد جثم على صدورنا احتلال جديد خبيث بعد أن قضينا القرون للتخلّص من الاحتلال القديم . .

قال الشيخ أبو المجد شاهين :

- نحن لم نتحرر قط .

- كيف؟

- كنّا دائمًا بعيدين عن الله .

- وما هى الحرية يا سيدنا .

- العبودية المطلقة لله وحده .

وتواترت الأنباء عن مصاعب جمّة يعانى منها المصريون العاملون فى اليمن والسودان والأردن والمغرب العربى،

والناس لا يجدون مخرجًا من هذا الهم المتمكّن، والأسعار- برغم التعويضات- ترتفع، والمعتقلات تضيق بمن فيها.

وفوجئ حضرة العمدة بزوار من الحكومة، ارتبك الرجل وعندما تساءل عن سرّ الزيارة رد عليه رجل وقور من الضيوف:

- أنت تعلم يا عمدة أن للحكومة قوانينها ونظامها، ونحن نثق فى أهل القرية، ونثنى على جهودهم الذاتية فى مجال الخدمات، وقد نما إلى علمنا أنكم أنشأتم ما يسمّى «ببيت مال المسلمين» وانتخبتم له مجلسًا للإدارة برئاسة أبو المجد سيد أحمد شاهين، أليس هذا هو اسمه؟ وأن المموّلة الرئيسية «براعم» ملكة العنب أليس كذلك؟ ولهذا رأت الوزارة أن تبعث بمراجع للحسابات، وأمين للخزينة، ومندوب من مصلحة الضرائب، ودفاتر للدخل والمنصرف، ثم لا بد أن يكون النشاط كله بالتعاون مع بنك ناصر الذى يشارك ويساهم فى أمور الزكاة.

استبد الغضب بحضرة العمدة، لكنه تمالك أعصابه، وحاول أن يتعامل معهم بشىء من الحنكة والدهاء، لذا قال:

- نحن نرحّب بأوامر الحكومة، ومهمتى أن أسهر على تنفيذ قوانينها، وهذا شىء طبيعى لأنى عمدة البلد.. غير أن

الأمر ليس على الصورة التى تظنونها . . ليس عندنا بيت لمال المسلمين . . ولم نقم بإجراء أيّة انتخابات لمجلس إدارة . . والزكاة أمر شخصى بين الإنسان وبين الله . . وكل صاحب نصاب يخرج زكاته بمحض إرادته إلى من يشاء من الفقراء، ولم أعلم قط أن هناك ضرائب تفرض على مال الزكاة . . فالحكومة تأخذ ضرائبها من المصارف التى حددها القانون . .

وبدا واضحًا أن الإفادات التى بلغت الرسميين لم تتمتع بأىّ قدر من الدقة، وأن رئيس المجلس المحلى أحمد بك علام وراء هذه الزوبعة المغرضة، ذلك لأنه وجد نفسه بعيدًا عن هذا العمل الكبير الذى تحدّث عنه الناس داخل القرية وخارجها، وأنه كان يستطيع أن يكسب من وراء الاشتراك فيه مبالغ كبيرة، إذ لا مانع عنده من أن يقاسم الفقراء أنصبتهم من الزكاة باتفاق مسبق، بعد أن يوهمهم بأنه سيضع أسماءهم فى كشوف الصرف .

قال شاب جلس صامتًا منذ البداية فى طرف غرفة الصالون :

- لكن تأكّد لنا يا عمدة أن هناك معونات شهرية تقدّم لعدد من طلبة الجامعات المنتمين إلى الجماعات الإسلامية .

قال العمدة وهو يكظم غيظه :

- القاعدة عندنا أن المعونات تقدّم للمحتاجين وحدهم.

- يجب أن تسألونا أولاً عمن تجب له المعونة.

قال العمدة فى تباله:

- من أنتم؟

- أمن الدولة.

- تشرفنا.

- نريد قائمة بأسماء الطلبة الذين..

قاطعة العمدة قائلاً:

- الرسول أوصى بأن تكون الصدقة فى الخفاء، فلا تعلم يمينك ما أعطت شمالك.. هل نسمع كلامك أم كلام الرسول..

علم الناس بما جرى، وليس هناك أمر يخفى على أهل القرية، وقال قائلهم: إن الحكومة تريد أن تسد منافذ الخير، فماذا يفعل أهل الإحسان عندما يعلمون أن صدقاتهم ستجر عليهم المتاعب؟!

إن المسئولين لا يرحمون، ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل.

وعندما استدعوا براعم بخصوص القائمة، قالت فى سخرية:

– اكتبوا أسماء أهل القرية جميعًا باستثناء عشرين أو ثلاثين فردًا . . سجِّلوا عنى أن شباب الربايعة من أفضل الشباب إخلاصًا ووطنية وخلقًا . . وأسوأ ما فى القرية المجلس المحلى ورئيسه . . وأن تطبيق مبادئ الإسلام الحنيف لا يحتاج إلى تصريح حكومى، أو لرجل أمن . . لماذا تحرّضون على بثّ الكراهية فى نفوس الناس؟؟

قال مسئول الأمن، وهو يغمز فى وقاحة، ويعبث بشاربه :

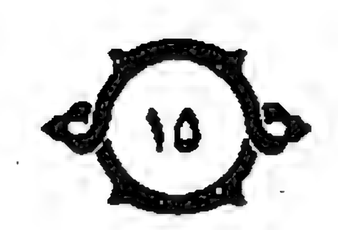
– هل لديك أقوال أخرى؟ . .

– نعم . . خذوا عنا رئيس المجلس المحلى . . إنه كفاءة نادرة!! وتستطيعون أن تستفيدوا منه فى مكان أكبر وأهم من هذه القرية التعسة المنكوبة . .

الشيخ محمد حسب الله يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يختارون فى أغلب الأحيان أردأ العناصر للتحكّم فى مصائر الناس؟؟

سؤال كان . . . وما يزال . . بدون جواب .

□□□



براعم ترى أن كل شيء فى حياتها يمضى على ما يرام، وحسبما تشتهى. إنتاجها الزراعى يتنامى ويتحسّن، وأسعاره مربحة، وصحتها والحمد لله ممتازة، وهذه هى الأخرى نعمة من نعَم الله الجليلة عليها، وأسرتها الصغيرة فى وضع لا بأس به، وتستمتع باستقرر عائلى، ثم إنها تؤدى رسالتها الإنسانية والاجتماعية على خير ما يرام، ومن أهم الأمور التى تسعد قلبها رضى الناس عنها، وإرضاء الناس جميعًا غاية لا تُدْرك.

إن الوضع العام جيد لولا ما أثارته الحرب العراقية من قلق فى النفوس، وتوتر فى المشاعر، فقد بدأت آثارها تظهر على كل ما يحيط بها، والربايعة تخاف على أبنائها المسافرين والمحاربين الذين انقطعت رسائلهم وأخبارهم، وتحوّلت الآمال المعقودة على هؤلاء المسافرين إلى هم ومعاناة، وقال البعض: إن تجربة السفر برغم فائدتها المادية تجربة مريرة، والأفضل أن يبقى الأبناء فى وطنهم، يشقون ويكدحون فى الرزق، ويرضون بما

قسمه الله لهم، وآخرون قالوا: لا يغنى حذر عن قدر، والسعى فى طلب الرزق أمر محمود ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] والمسافر يكتسب الرزق والخبرة والعلم، وهناك من يجدون متنفسهم فى السفر، خاصة أصحاب الرأى الحر من المضطهدين الذين لا يطيقون الانحراف والفساد، ويأنفون من حياة الطوارئ ويعتبرونها ذلّة وهوانًا، وهناك من لم تتهيأ لهم فرص العمل فشقوا بالبطالة سنين، ومن ثم لا بد أن يبحثوا لهم عن مخرج، وهناك المسئولية الإنسانية تجاه إخوة لنا فى الدين والعروبة يحتاجون إلى عوننا كما نحتاج إلى عونهم، وهذا التمازج والاختلاط، برغم بعض ما فيه من ممارسات خاطئة - يقرّب بين شعوب الأمة، ويخطو بها إلى طريق الوحدة. . إن الربايعة تعلم، وكذلك براعم، أن الحياة السعيدة مكتملة الأركان حلم من الأحلام، وقد خلق الله الحياة بحيث يشوبها شيء من النقص أو المنغّصات، والكمال لله وحده.

ما الذى يقلق براعم إذن؟

إن النوم يجافى عينيها أحيانًا، وهى تشعر أن بعقلها الباطن رغبات سجينة، وحدها تدرك ذلك، لكنها تكبتها بقوة، لقد تعلّمت الكبت والكتمان منذ الصغر، وقوى هذا الإحساس

لديها عندما وجدت نفسها غارقة حتى أذنيها فى الزراعة والتجارة وهموم القرية ومشكلاتها. أصبح الكبت والكتمان عادة، لكنهما خلّفا وراءهما شيئًا من الحزن الغامض الذى تحاول التغلب عليه بالابتسام، وبالانهماك فى العمل، تذكرت ذلك المليونير الذى جاء إليها من قرية مجاورة ومعه الشاحنات تحمل الهدايا الكثيرة، وقال لها:

- أنت ملكة العنب وأنا ملك الفراخ. . والملكة للملك.

فهمت قصده، قاسته بنظراتها، كان كث الشارب عملاقًا ذا كرش كبير، وعيناه محاطتان بهالات زرقاء، وابتسامة طفولية على ثغره الواسع.

- أنا لست ملكة. . نحن فى عصر صناعة الألقاب التى لا معنى لها.

رد مداعبًا:

- نحن فى زمن البطيخ الأقرع.

ضحكت وقالت:

- هل أنت أصلع؟

فغر فاه دهشة، ثم أحكم العمامة على رأسه وقال:

- كيف عرفت؟

عادت إلى الضحك وقالت :

- من الزمن الأقرع .

- الصلع من علامات الرجولة .

شكرته بلباقة ، وقبلت هداياه ، وأمرت رجالها أن يملئوا شاحناته بالعنب والغنم والبطيخ غير الأقرع .

- لقد شرفنا بزيارتك ، وأنا لا أفكر الآن فى الزواج على هذا النحو من السرعة . .

- المسألة فى غاية البساطة . .

- ذلك لأن لك تجربتين سابقتين .

اضطرب وتلعثم ، وارتعش شاربه ، وشرب الشاى بيد مرتجفة وولّى هاربًا من الحرج .

حتى رئيس مجلس القرية أحمد علام فاتحها فى أمر الزواج ، وأفهمها بطريقة لبقة ، أنها فى حاجة ماسة إليه ، ويستطيع أن ييسّر لها كافة الصعوبات ، ويحلّ أعتى المشكلات لصلته الوثيقة بكافة رجال الإدارة ، ولوضعه الحزبى المتين ، وقرابته لهذا وذاك من كبار المسؤولين ، ويومها ردت عليه براعم بحسم قاتل :

- أهدافنا وطرقنا مختلفة تمامًا ، ولن نلتقى .

- سأكون رهن إشارتك، وأنا قابل للتغيير.. ستكونين أستاذتي ومليكتي في كل شيء..

قالت وهي ترمقه بنظرة احتقار:

- هل استشرت زوجتك وأولادك؟

- هذا أمر يخصني..

- ويخصهم يا بك..

- لن تجدي أنسب لك مني في هذه الدائرة.

- هل شربت القهوة؟؟

طأطأ رأسه، وأخذ علبة السجائر والقداحة والمسبحة، وخرج.

أما ضابط الشرطة فقد كان شابًا مهذبًا خجولاً على غير العادة، أرسل إليها يطلب يدها عن طريق وسيطة، وزودها بكل المعلومات اللازمة عن أهله وأملاكه، وبعد أن أثنت على أخلاقه وسمعته قالت:

- يا خسارة.. إنه يصغرني بثلاث سنوات، ثم إني علمت أن له قريبة تنتظره منذ سنوات كان قد وعدها بالزواج..

حتى الطناحي بك عضو مجلس الشعب تقدم لخطبتها، ولم يكن متزوجًا وقد اقترب من الأربعين، ولديه من المال ما

يكفيه، ومن رصيد السمعة والخدمات ما يؤهله لكسب الأصوات والمؤيدين.

قالت له:

- أنا لا أحب حياة السياسة.

- أنا مستقل.

- هذا أسوأ، يجب أن تكون صاحب اتجاه محدد.

- إن لى اتجاهى.

- ذلك يخصك ولا يخص الجماهير.

- لماذا انتخبونى إذن؟

- هناك أشياء كثيرة فى السياسة لا أفهمها، وليس فيها تفسير واحد للموضوع الواحد..

- لن يكون بيتنا ساحة للصراع السياسى، بل ملاذًا آمنًا لأسرة.

- أنت تعيش بلا أسرة منذ سنوات.

- وأنت أيضًا..

- كنت أنتظر المناسب.

- وأنا أيضًا.

- بل تنتظر النجاح أولاً فى الحياة السياسية والحياة العامة .

هزّ رأسه فى أدب، وابتسم ابتسامة دبلوماسية، وقام وهو يقول :

- اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .

- أرجو ذلك .

أرهقها التفكير، وهى تستعرض خطّابها الكثيرين . لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، انتزعت نفسها من الفراش بعد ليلة مؤرقة، وصلّت الصبح، ثم تناولت المصحف الذى أهدته القرية لها، وقرأت سورة ياسين، ثم صدّقت وتمتمت ببضع دعوات . كان طعام إفطارها بسيطًا :

كوبًا من اللبن البقرى، وقطعة جبن فلاحى، وفنجانًا من الشاى، وقررت أن تقوم بجولة حرّة وحدها وسط المزارع . ركبت عربتها التى يجرّها الحصان، وأوصت بألا يتبعها أحد من رجالها، وانطلقت تشم رائحة الزروع الخضراء، لم يكن هناك فى الطريق سوى نفر قليل، فالقرية منذ أن جاء التلفزيون تسهر وتستيقظ متأخّرة دومًا، اللهم إلا عددًا قليلاً من رجالات العهد البائد، وهم الفلاحون الأصلاء الذين ظلّوا على العهد وفاءً لأرضهم وأعمالهم، والحقيقة أن الماكينة الزراعية قد وفّرت على الناس الكثير من الجهد والوقت،

فالفدان الذى كان يحتاج ساعات لسقيه بالطنبور أو الساقية أصبح يُسْقَى عن طريق الماكينة فى ساعة واحدة، وهكذا. ووصلت براعم إلى المصرف الرئيسى الذى يبعد عن البلدة بحوالى كيلومترين، كانت تجلس فى عربتها الأنيقة وهى أروع ما تكون جمالاً ووقاراً ونبلاً . . حانت منها التفاتة، فوقعت عينيها على كوخ صغير من الأحطاب على شاطئ المجرى، تظلّله شجرة من التوت المورق وشجرة من اللبلاب النضر، وحوله بضع شجرات عنب، نظرت بالداخل وهى تبطئ السير، فإذا بها ترى الشيخ أبو المجد شاهين جالسًا على القش يقرأ القرآن . . توقفت، ألقت عليه السلام . . كانت معه طفلة صغيرة لعلها حفيدته . .

- صدق الله العظيم . . وعليك السلام .

تهلّل وجهه بالفرح الطاهر، وابتسم فى سعادة، دعاها لشرب كوب من الشاى معه، أخرج الشعلة، وملأ برّاد الشاى من ماء القلّة، ثم أشعل النار، وهو يقول :

- خطوة عزيزة .

كانت ترتاح إليه، وإلى أحاديثه العذبة، وتثق فيه ثقة كبيرة، وتعتقد أنه رجل من الواصلين، عرفته طفلة ثم شابة، وعرفته فقيرة، ثم غنية، فلم ترَ منه إلا الرجل المؤمن القانع،

الذى لا يمد يده لأحد، ولا يستعطف أحداً لشأن من شؤون الدنيا، أخذ يسألها عن حالها، فأخذت تشكو ما تعانيه من القلق والأرق وأوقات الاكتئاب الثقيلة، وشحب وجهها حين سمعته يقول:

- الزواج نصف الدين.

قالت فى ارتباك:

- أنا لا أفكّر فى ذلك.

ثم جاءها سؤاله الحاسم القاطع:

- هل تريدينه غنيًا؟

- لا أطمع فى مال فعندى ما يكفينى ويزيد.

- هل تريدينه صاحب سلطة ونفوذ؟

- السلطة زائلة.

- هل تريدينه من أسرة عريقة؟

تنهدت قائلة:

- كنت أقول دائمًا مقالة رسول الله: «كلكم لآدم وآدم من تراب».

- أريد.. أريد..

ثم قطع حديثه قائلاً:

- الناس لا يشبعون..

- أعلم.

- اصدقيني القول فأنا مثل أبيك.. بل مثل جدّك.. وخبرت الحياة حلوها ومرها.. ما هى صفات الزواج لديك؟

- أن يكون بصيرًا بأمور دينه ودنياه، صحيح النفس والبدن.

أغمض عينيه وتمتم بصوت خفيض.. ثم صاح بصوت عالٍ:

- لقد وجدته.

دقّ قلبها بعنف.

ثم صمت برهة وقال:

- ليس فارسًا على جواد حاملاً سيفه، ولا يملك رقاب الناس، بل يسير بينهم فى الطرقات.. ولا يمشى فى الأرض مرحًا..

- من يا مولانا؟

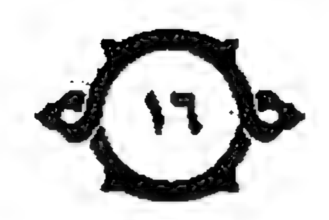
فتح عينيه هذه المرة وقال فى اطمئنان:

- محمد حسب الله .

وكم كانت دهشته عندما وجدها تهب واقفة ، وتجرى صوب عربتها ، ثم تطرق الكرباج فى الهواء ، فينطلق الجواد مسرعًا ، مخلفًا وراءه سحابة من الغبار .

ابتسم أبو المجد ، ثم رفع يديه إلى السماء :

- اللهم اجمع بينهما فى الحلال ، واكتب لهما السعادة دنيا وآخرة . ومسح على وجهه ، ثم تناول المصحف وأخذ يقرأ من جديد . .



كانت براعم دائمًا تقدّر محمد حسب الله وتحترمه لعلمه وذكائه وكبريائه، لم تسمع عنه طوال حياتها ما يشين، كل شيء عنده رخيص إلا دينه وكرامته، وكل ما في العالم جميل إلا خالطه إثم أو ظلم أو فساد، يتدخّل في القضايا العامة بقدر ما ينفع الناس، ويبعد بنفسه عن الأمور الشخصية أو الخاصة للآخرين إلا إذا حُكم في قضية من القضايا، يجنح إلى السلام، ويتحاشى الصدام، وكان ذلك سليقة في نفسه -ربما أخذها عن أبيه- وعلمًا تعلّمه واستوعبه، وقد حاول دائمًا أن تكون حياته ترجمانًا لمنهجه وعلمه وطبيعته. ولهذا كان أغلب الوقت في وئام مع نفسه، لقد عرفت «براعم» ذلك كله بتجربتها، وبتعاملها القليل معه، ومن خلال ما يتحدّث به الناس عنه، ولقد فكّرت ذات يوم أن تطلب منه أن يعطيها دروسًا في بعض المواد خاصة اللغة العربية، أملاً في أن تستأنف دراستها من جديد، لكنها وجدت أنها ستحتاج إلى

عـدد آخـر من المدرّسين، وقـد يكون مـدعـاة للقيل والقـال، وسوف يؤثر ذلك أيضًا بالتأكيد على مسار عملها الزراعى والتجارى، ورأت إحدى صويحباتها أن تستعين بمدرّسات فهذا أقرب إلى طبيعة القرية وتقاليدها. لكن براعم فى النهاية أرجأت الموضـوع برمّتـه، انتظارًا للوقت المناسب، ولإعطاء نفسها مزيدًا من التفكير..

كان الصدام الوحيد الذى حدث بين براعم ومحمد حسب الله حول موضوع زكاة العنب، إذ إنها فهمته بشكل مختلف عن الحقيقة، إذ صوّر لها بعض معاونيها أن ذلك فيه تعريض بها، واتهام لها بالظلم والجشع، خاصة أنها كانت تقدّم العون للكثيرين، كما رأت فيه أيضًا تهييجًا للرأى العام فى القرية، وهى تعتـمـد أسـاسًـا على حب أهل القـرية الفـقـراء الطيبين، تعتـمـد عليـهم فى صـراعـهـا مع الحيتـان من كـبـار المزارعين والتجّار، أو بمعنى آخر، رأت أن كلمات محمد حسب الله قد تهزّ عرشها إن لم تقوّض أركانه، خاصة أن دعوته إلى دفع زكاة العنب قد صاحبها ممارسات مشبوهة كالسرقات التى انتشرت فى تلك الفترة، وفى أعقاب دعوته. ولقد تمادت براعم حينما شكته إلى العمدة، ودبّرت أمر منعه من الصعود إلى المنبر لأداء خطبة الجمعة، والحقيقة أنها كانت تشعر بقدر كبير من عدم الارتياح وهى تفعل ذلك، إذ لم يغب عن ذهنها

لحظة أنه الرجل الصالح الذى لا تحركه أهواء أو أحقاد، وأن له الحق كل الحق فى أن يفتى فى أى أمر من الأمور. ثم كان حادث القبض عليه فى جنازة العراق مثيراً، إذ هزها من الأعماق، وآلمها أن يُساق مثل هذا الرجل الصالح كما تساق المواشى، مثله فى ذلك مثل عوض العوضى والراعى كشكل، وأصحاب السيرة المليئة بالشبهات والشغب والمشكلات، عندئذ نسيت ذلك الخلاف العارض الذى جرى بالأمس القريب، وشمّرت عن ساعد الجد، وبدأت رحلة المروءة لمحاولة إنقاذ المعتقلين خفية فى البداية، ثم علانية بعد ذلك وتصدّت للتيارات الجارفة بكل ثقة وشجاعة، ولم تبخل بجهد أو مال حتى تمكّنت من تحرير الأسرى، وهى أشد ما تكون رضى وسعادة وراحة بال.

وبراعم لم تجعل الزواج يشغل حيزاً كبيراً من تفكيرها. كانت صويحباتها يجلسن معها، وفيهن المتزوجة وغير المتزوجة، والمتعلّمة وغير المتعلمة؛ وكان أشهى الأحاديث لديهن حديث الزواج. كانت تستمع إليهن كثيراً لكنها قلّما كانت ترد. وكان الحديث بينهن يتجدد عن الزواج كلما أتى إلى براعم خطيب جديد، فيتناولنه بالوصف والتحليل والتعليق حتى يصبح الأمر موضوعاً للفكاهة والمرح والضحك، وكثيراً ما كانت براعم تجلس بينهن لتقرأ خطابات

الهيام والغرام التى يبعث بها إليها المعجبون والمحبون، وكانت حريصة على أن تقرأ كل خطاب دون أن تذكر اسم صاحبه، ولم يلحظن قط أنها ميّزت واحدًا على آخر. وكانت تعلّق قائلة: «لم يأت الوقت ولا الرجل الذى أنشده»، فكنّ -كأمها- يتهمنها بالتكاسل والاستهتار والتراخى الذى سوف يجعل قطار الزواج يفوتها، وفى المرة الأخيرة -قبل أن يحادثها الشيخ أبو المجد فى الأمر- طوت الرسائل ودسّتها فى الصندوق الصدفى الملفوف فى قطعة من الحرير وقالت:

-أتدرين ما هى أعظم رسالة حب تلقيتها فى حياتى؟

رددن بأصوات متلهّفة، وعيون شرهة:

- أين هى؟؟

- رسالة غير مكتوبة. .

- شفوية. .

هزت كتفيها وقالت:

- أنتن تعرفن. .

أخذن يتبادلن النظرات بين بعضهن البعض، ويتساءلن دون أن يعرفن شيئًا محددًا، فضربن كفًا بكف وقالت إحداهن بلسانهن:

- بصراحة نحن لا نعرف.

- بل تعرفن.

- قولى، فقد ازداد شوقنا.

تنهّدت ووجهها يشرق بالفرح:

- رسالة سمعها ورآها الناس جميعًا فى القرية.. هل نسيتم يوم أن وقف محمد حسب الله فى المسجد يعلن على الملأ تقديره وإعجابه بى، كان يتحدّث من قلبه، وخرج من المسجد على رأس الجموع قاصدًا بيتى.. رافعًا بيمينه أعظم هدية تلقيتها فى حياتى.. كتاب الله..

وهامت فى أنحاء الغرفة، وهى تضع المصحف على صدرها وتقول:

- كان ذلك أعظم رسالة حب.

صاحت إحداهن:

- يا ربى.. مستحيل أن تتزوجيه.

- لم أتحدث عن الزواج.، ولكن عن رسالة الغرام.

صمتت برهة، ثم قالت:

- قد يكون فقيرًا متواضعًا لا يملك إلا راتبه الشهرى، لكن قلبه كنز، وعقله كنز، وأخلاقه جواهر..

- لكنك تستحقين فارسًا طولاً وعرضًا . . .

- الفارس صورة نتخيّلها، لكن لا وجود لها . . حياتى علّمتنى أن الفرسان الأصلاء رجال يدبّون على الأرض، نراهم ويروننا . . والخيال سيعلو بنا إلى السماء، فنظلّ حائرين بين السماء والأرض . .

قالت إحدى صويحباتها:

- أقطع ذراعى إذا كنت لم تفكرى فى الزواج منه.

ولذلك حينما كلّمها الشيخ أبو المجد شاهين عن زواجها من محمد حسب الله، أصابها شىء من الدهشة، هل هذا الرجل الطيّب يعرف ما يدور فى مجلسها، ويصطرع فى نفسها، ويتجسد فى أفكارها؟ إن الكثير يقال عن أبو المجد، وما يقال فيه الكثير من الحقائق والخرافات أيضًا، لكن الإجماع على أنه رجل طيب القلب، طاهر الروح، صادق الفراسة، راجح الرأى. والواقع أن محمد حسب الله إلى جانب صفاته المعروفة يتمتع بكل ما يتمتع به أفضل الرجال من رشاقة ووسامة وحديث حلو، وطلاقة فى التعبير، وقدرة على الإقناع، ورجاحة فى الرأى، وهو برغم كبريائه متواضع سلس، ومن النوع الذى يُحب ويُحترم مهما قال أو فعل.

●●●

ذهب أبو المجد لزيارة محمد حسب الله فى بيته، وكثيراً ما يتزاوران، وأعدت له الأم مسعدة فنجانًا من القهوة، ثم انصرفت إلى جاموستها تطعمها وتسقيها، وأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث حول بعض المسائل الفقهية، خاصة فقه المعاملات، ويناقشان الفتاوى الجديدة للمفتى حول شهادات الاستثمار وفوائد البنوك، وهل هى من الربا أم لا، وما أثير حول هذه القضية من آراء وأقوال للعلماء تركت دويًا هائلاً فى أوساط العلماء والمثقفين ورجال الاقتصاد والفكر وعامة الناس، ثم تشعّب الحديث إلى عدوان العراق على الكويت، وانشغال العالم كله بهذه القضية العجيبة، واقتراب موعد الانفجار الكبير فى المنطقة العربية كلها.

ثم نادى محمد أمه وأخبرها أن موعد طعام العشاء قد أزف، وأنه مصرّ على أن يتعشّى مع «سيدنا» فطيراً وجبنًا وقشدة من جاموستها وعسلاً «فيه شفاء للناس». وبعد أن أكلا وشبعا، قال أبو المجد: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا من غير حول منا ولا قوة» ثم غسلا أيديهما، وركنا إلى الصمت والراحة فترة قصيرة، قال أبو المجد بعدها:

- أرى أنه قد آن الأوان لتستكمل نصف دينك.

ضحك محمد قائلاً:

- يدى على كتفك، وأين التى تتزوج رجلاً فقيراً مثلى لا يملك إلا راتبه، أو قوت يومه . .

سمع أمه تقول بأعلى صوتها خارج الغرفة :

- قل له يا شيخ أبو المجد . . إن جاموستنا تنفق على عائلة . .

وضحكا، قال محمد :

- لا تسترقى السمع يا أمى . .

- يعنى عندك أسرار الدولة يا خىّ؟؟ انتهى . . لن أسمع شيئًا بعد ذلك .

وسمعا خطواتها تدبّ إلى خارج البيت .

قال محمد فى شغف :

- لكن ما الذى جعلك تفكّر فى هذا الأمر الآن؟

فاجأه أبو المجد بقوله :

- لأنى خطبت لك براعم . .

شحب وجه محمد، ونظر إلى أبو المجد :

- ألم تجد غير براعم؟

- ولم لا؟؟ إنها تناسبك .

- لكنى لا أناسبها يا سيدنا!! أين الثرى من الثريا؟

ثم إن التكافؤ فى الزواج مطلوب شرعًا. .

قال أبو المجد فى جدّ:

- أنت مخطئ يا ولدى. . التكافؤ موجود، مخطئ إذا ظننت أن التكافؤ بالمال. . وأنت الثريا بفضلك وعملك. . وهى الثريا بأخلاقها وسيرتها الحسنة وحسنها النقى. .

- سيدنا. . يجب أن يكون لأحلامنا حدود. .

- نحن لا نحلم. .

جفّ ريق محمد من الانفعال وقال:

- هل وافقت؟

- أعتقد أنها ستوافق بإذن الله.

زغردت مسعدة فجأة، وأخذت تغنى:

كتبوا كتابك يا نقاوة عينى

يوم الهنا يا حلوة يوم ما تجينى

انتفض محمد من الغضب وجرى خارج الغرفة، ثم وثب صوب أمه ووضع يده بحنان على فمها حتى لا تستمر فى الغناء والزغاريد وهو يقول:

- لا تفضحينا يا أمى . . اعملى معروفًا . .

نزعت نفسها منه قائلة :

- ألا تريد أن يدخل الفرح فى قلبى مرة فى العمر .

تبعها أبو المجد وقال :

- يا أم محمد ، استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . . انتظرى حتى يتمم الله الأمر . .

لقد تعوّد محمد أن يشكم هوى نفسه دائمًا ، له إرادة حديدية تمكّنت عبر سنوات الصبر والمعاناة ، وكان يغالب نزواته المتمردة ويقهرها ، وهو بشر يحب ويكره مثل كل الناس ، ويحلم بالمرأة كما يحلم بها الآخرون ، ويتعشم منذ سنوات أن تكون له أنثى يبادلها الحب والأحلام فى غد جميل .

وكثيرًا ما فكّر فى براعم ، وهل هناك من لم يفكر فيها؟؟ كان الأمل بعيدًا إن لم يكن مستحيلاً ، لكن من قال إن اليأس يَغْلُل قلوب جميع الناس . . الحلم هو المنحة الكبرى التى لم يحرم الله منها أحدًا من خلقه . .

كان محمد يحلم ، ولم يكن مصرًا على أن تتحقق أحلامه ، ويسعد بذلك أيما سعادة ، ويظلّ فترات طويلة يتحدّث مع

براعم فى الخيال، ويختلفان ويتفقان، كأن ما يحدث حقيقة تجرى على قدمين فى واقع الحياة، وما إن يذهب إلى الصلاة أو يفتح المصحف ليقرأ، حتى تتحرك بوصلة أفكاره إلى عالم آخر أسمى جمالاً وأحلامًا.. وهو لا يجد تناقضًا بين هذا وذاك.





أخوال براعم فى قرية شنراق أصيبوا بما يشبه الصدمة حينما علموا بأنها قد تتزوج، فكيف تختار عريسًا من خارج العائلة التى رعتها وساندتها، وفتحت أمامها طريق النجاح والثراء، وأمدتها بالخبرة، وفى عائلة أخوالها عدد من الشباب الناضج، فيهم المتعلّم الذى أنهى دراسته الجامعية، وفيهم المزارع والتاجر والنابه، وفيهم صاحب النفوذ والسمعة الطيبة، فماذا تتمنى براعم أكثر من ذلك؟ إنهم أحق بها من غيرهم، وخروجها عن دائرة هذه العائلة يعنى الاهانة، ويثير القيل والقال، ثم إن فيه نكرانًا للجميل. ومن ثم أرسلوا فى طلبها وعنّفوها بقسوة لدرجة أن خالها قال بحدة:

- إن هذا الزواج لن يتم.

اربدّ وجهها، لكنها لا تستطيع أن ترفع صوتها على خالها، أو تعترض على مشيئته، فهو رجل ذو بطش ونفوذ،

لكن الأمر يعنيها أولاً وأخيراً، ولقد اختارت رجلها بمحض إرادتها بعد أن وجدت لذلك استجابة في قلبها وعقلها، وهي لم تفكّر قط أن تترك «الربايعة» وتعيش في «شنراق»، لقد أحبت الربايعة وأهلها حبًا ملك عليها زمام روحها، كانت تعشق الناس والأرض والزرع الأخضر، حتى لكأن هذا الشعور ولد معها، وأحيانًا كانت تأخذ قبضة من تراب الأرض وتشمها وتقبّلها في حنان، وعندما كانت تظهر عناقيد العنب كانت تمرغ وجهها الجميل فيها وتلثمها بشفتيها، مثلما كانت تلثم الأطفال الصغار وهم يلعبون في الحقول وعلى شاطئ الترع وفي الحوارى. تكاد تكون الربايعة جزءاً لا يتجزأ من جسدها وروحها، وانتزاعها من الربايعة يعني الموت المحقق، أو -على الأقل- الحياة بلا معنى، لقد استطاعت أن تحسم أمر الزواج بالنسبة لكل من تقدّموا لخطبتها قبل محمد حسب الله وتتخلّص من مطاردتهم، لكنها اليوم في مأزق شديد، فأخوالها غير الناس جميعًا، وهي تحبّهم وتحترمهم، لقد أعطوها فرصة لإعادة التفكير والنظر من جديد، لكنها لم تجد في نفسها أدنى رغبة في التراجع عما اعتزمته، أصبح زواج محمد منها أمرًا محتومًا، ومن الغريب أن خالها أرسل رسولاً إلى الأستاذ محمد حسب الله ليثنيه عن عزمه، وأفهموه أن زواجه منها سيخلّف معقبات وخيمة وخطيرة، وقد يؤدي إلى إراقة الدماء. قال لهم:

- إننى لا أرتكب معصية .

- نعلم ذلك، لكننا لا نريد إيقاظ الفتنة .

- الفتنة أيها السادة لا يوقظها إلا الشيطان .

- إذن أنت متفق معنا يا أستاذ محمد .

- نعم، لكننا لم نتفق حول من هو الشيطان .

- من هو؟

- الذى يعترض إرادة الله، وإرادة البشر الحرّة .

- نحن لا نفهم .

- بل تفهمون . . أعود فأقول اقرءوا سنة رسول الله .

- وهل من السنة أن تخدع ابنتنا وتخطفها؟؟

- إنها ليست قاصرة، ولا إكراه فى الزواج .

- والحل يا رجل العلم والحكمة؟

- الحل أن تسألوها من تختارين؟

- هذا يحطّ من شأن عائلتنا .

- ولماذا تظنون ذلك؟

- هل سمعت بفتاة خرجت على رغبة أهلها؟

أصبح الأمر معقدًا، واهتاجت النفوس، ومحمد حسب الله ليس له أسرة قوية قادرة تحميه، وبراعم مهما كان الأمر امرأة، و المرأة كما يقولون مهيضة الجناح.

ذهب أبو المجد إلى شنراق وقال:

- لا تزرعوا الشوك.

- نحن نزرع العنب، وليس فينا من يزرع الشوك.

قال الشيخ أبو المجد فى شجاعة:

- يا من تأخذون الكلمات بظاهرها، وتجعلون أوهام الجهل فوق حقائق الشرع.. بل تزرعون الشوك كل يوم فى النفوس والعقول، وفى علاقات البشر.

فهم خالها ما يقصده أبو المجد، فرحّب به على مضض واستقبله فى بيته استقبالاً كريمًا، وقد أبى أبو المجد أن يأكل أو يشرب شيئًا إلا القهوة.

قال خالها:

- نحن نجلّك يا سيدنا ونعرف قدرك، والأقربون أولى بالمعروف..

- كلمات ترددونها بدون أن تعرفوا مراميها.. هل من

المعـروف أن تكرهوا الفـتـيـات على الزواج . . إن زواج المكره باطل . . باطل . . اسـألوا أهل الذكـر إن كنتم لا تعلمون .

وذاع خبر الخلاف الخطير فى كل مكان ، وانشرحت صدور الحاقدين والشامتين ، ووجفت قلوب المخلصين الصادقين ، وقهقه أحمد علام رئيس المجلس المحلى ، وصفّق بيديه قائلاً : «نحن على أبواب معركة ضارية كحرب الكويت ، وأخشى أن تطلق فيها صواريخ «سكود» وليس لدى الطرفين صواريخ «باتريوت» لإسقاطها . . » .

وعلّق أحد الشباب قائلاً : «لماذا لا تجرى استفتاء فى القريتين على الأجدر بالزواج من براعم؟؟ إن مثل هذا الاستفتاء سيحسم الموضوع بشرط أن يكون حرًا ، وأن يشرف عليه نخبة من رجال وزارة العدل الشرفاء» ، ورد عليه شاب آخر : «نحن فى زمن القوة ، وحسب الله لا يستند إلى القوة بل يعتمد على الشرعية ، فهل الشرعية وحدها كافية . . » ورأى أحد شعراء الشباب ألا تتزوج براعم ، وأن تبقى هكذا ملهمة للشعراء والمبدعين ، ومن الغبن أن يمتلكها واحد بعينه ، الرمز ، والإلهام ، والحب ، ملك للجميع» ، ورفع أبو المجد كفيه إلى السماء

قائلاً: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣]. صدق الله العظيم . . فلتتجهوا بقلوبكم وأرواحكم إلى مالك الملك وحده.

أما الحاج عبد الشافى وهدان عمدة القرية، فقد حرص على تهدئة الخواطر، واتصل بعمدة شنراق وناقش معه الأمر باستفاضة ثم تبودلت الزيارات بينهما، وأصدرا بيانًا شفهيًا أكّدا فيه أن القريتين حريصتان على علاقات السلام والمودة بينهما، وأن المسألة لا بد أن تحلّ بالأسلوب الدبلوماسى الهادئ، حرصًا على استقرار الأمن؛ لأن نشوب معركة يعنى خسائر فى الأرواح والأموال والمزروعات، بدون أى نتيجة إيجابية، وأنه يجب عدم الخلط بين النزعات الشخصية، والأصول الشرعية.

وكان رأى الأم مسعدة أن الباب الذى يأتى منه الريح، سدّه لكى تستريح، إن أغلى أمانيها أن يتزوج ابنها براعم، لكنها لا تقبل أبدًا أن يكون ثمن ذلك التضحية بوحيدها، ومسعدة شغفت من قديم بالمعارك الكلامية، أما معارك الجراح والدماء فهى أبعد ما تكون عنها، إذا لم يتزوج ولدها براعم فهناك ألف ألف فتاة يمكن أن يتزوج إحداهن.. حتى عوض العوضى

المشاغب شارك فى الرأى قائلاً: إن الربايعة أكبر من شنراق بعشر مرات، وبذلك نستطيع أن نمسحهم من الوجود، ولدينا من السلاح أكثر مما لديهم؛ ولهذا فإن شنراق لن تستطيع أن تأخذ براعم منا.

لكن عباس السمنُّودى رماه بالجهل وقصر النظر، وشرح له كيف أن المعركة ليست معركة مكشوفة، وملحمة فى العراء بين جيشين لأن النصر عندئذ سيكون للربايعة، لكن فى رأيه ستكون معركة خفيّة خبيثة، تستعمل فيها أخسّ الأسلحة وأدناها، ولهذا فإن عباس السمنُّودى قد أعد العدة لبث رجاله فى الربايعة وشنراق وبعض القرى والكفور، كى يشم رائحة أية مؤامرة تدبّر فى الخفاء، وبديهى أن المؤامرات سوف تتّجه فى رأيه أولاً ضد محمد حسب الله، وثانيًا ضد براعم، وقد تمتد إلى الشيخ أبو المجد وحضرة العمدة عبد الشافى وهدان، الذى يقدّم الدعم المادى والمعنوى لبراعم وللشيخ محمد، وقد استجابت براعم لمشورة عباس بهذا الشأن، وأصبحت تحركاتها قليلة، وتتم بحرص وذكاء، لكن أبو المجد لم يحفل بشىء، وكان يرد: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. وجاءته براعم تقول:

– أنا فى مأزق يا سيدنا.

– اضرعى إليه هو. . سبحانه.

– جئت بدموعى.

– أقول لكم دائمًا: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

– ترقرقت الدمع فى عينيها:

– ماذا أفعل؟؟

– استفتى قلبك يا ابنتى.

– قلبى يكره الفتنة. .

– قلب المؤمن دليله يا براعم.

– أنا على استعداد للتضحية يا سيدنا. . .

– أية تضحية؟

– إننى أفكر أن أقهر مشاعرى وحبى وأتزوج من ابن خالى حتى لا تراق الدماء. .

صرخ أبو المجد:

– لا تقوليها يا ابنتى. . أنت حرّة. . وتهتدين بشرع الله. .

- الخوف من المستقبل يملؤنى . . أخاف أيضًا على محمد . .

- للبيت رب يحميه . .

ثم سمّى باسم الله . وشرب جرعة ماء وقال :

- عندما يكون الإيمان قويًا فى قلبك فلن تخشى أحدًا إلا الله . . ابتسمى وافرحى واسعدى ولا تخافى . . ابتسمت براعم وقالت مداعبة :

- لماذا لا تتزوجنى أنت يا مولانا؟

- إذا عاد شبابى .

- قد أفسد عليك دينك .

- بل ربما زدت من صلاحى . . لكن ذهب العمر . . الحمد لله . . ثم ابتسم فى سعادة وقال :

- يقول الرسول ﷺ : «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه» . . ولقد خطبتك لمحمد . . وأنا لست نادمًا . . لقد جمعتما الخير كله فى أذرعكم وفى قلوبكم . .

●●●

عُقد القران - لأول مرة - فى مسجد القرية الكبير ، وحضره العمدة ، وكان العقد على يدى أبو المجد نيابة عن

المأذون الجالس إلى جواره، وتناوب الخطباء متحدثين عن هذه المناسبة السعيدة وعن الحكمة الشرعية للزواج وآدابه وأركانه و تكاليفه، واستمع الحضور إلى صوت المقرئ المجيد، وزغردت النساء فى الخارج وعلى رءوسهن مسعدة، وشرب الناس الشربات وأكلوا العنب والحلوى، ونُحِرَت الذبائح.

ولم يعكّر صفو هذه الليلة الجميلة سوى تسلّل عدد من الأشقياء الغرباء عبر حقول الذرة الكثيفة، قاصدين إطلاق الرصاص وإراقة الدماء، لكن الخفراء وعباس السمنُّودى ورجاله وعدد من أهل القرية أمسكوا بهم، وكتّفوهم، وجرّوهم على الأرض إلى دوار العمدة، حتى تأتى المباحث للتحقيق معهم. ولم يعرف أحد أين ذهب محمد وعروسه لقضاء شهر العسل.. لقد خرجا خفية بعد أن هدأت الجفون، ونامت العيون.. وتركا وراءهما مسعدة وجاموستها..

قبيل الفجر، كان الشيخ أبو المجد شاهين كعادته - يجوب شوارع القرية النائمة ليوقظ الناس لصلاة الفجر منشدًا بصوته الشجىّ:

يا نائمًا مستغرقًا فى المنام

قم وَحّد الحىّ الذى لا ينام

●●●

تمت بعون الله يوم السبت السابع من صفر ١٤١٢هـ

الموافق ١٧ من أغسطس ١٩٩١م

شرشابة -محافظة الغربية- مصر

نجيب الكيلانى

□□□